13 me Année No. 651

Lundi—24—12—1945

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر المالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة عشرة « القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ محرم سنة ١٣٦٥ — ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٥ » العـــدد ٦٥١

معرفة الطريق ...

للأستاذ عباس محمود العقاد

قد يصل المرء إلى المعرفة الجوهرية عرضاً ، وهى التى نسميها هنا بمعرفة الطريق

وقد احتاجت معرفة الطريق فى عصرنا هذا إلى شىء من الإنصاف بعد أن جار عليها الناقدون كل الجور ، وزعموا أن النظرة العرضية لا تؤدى إلى معرفة يعتد بها على الإطلاق

وفى اعتقادنا أن تاريخ المذاهب الفكرية كلها إنما هو تاريخ جور واعتدال ، أو تاريخ إجحاف وإنصاف ، أو تاريخ تجاوز للحد ورجوع إليه ، وقد يكون الرجوع إلى ما دون الحد بكثير أوقليل ، فيحتاج الفكر إلى رجعة أخرى ليستقر على الحد الصحيح

أفرط النـاس فى الإيمان بالمنطق ، ثم أفرطوا فى الإيمان بالسماع ، ثم أفرطوا فى الإيمان بالعلوم التجريبية ، ثم جمعوا بين المنطق والسماع والعلوم التجريبية فى تقديرات علم النفس الحديث ، ثم لعلهم يعودون كرة أخرى إلى حدود المنطق السليم ، ولكن لا وراء الحدود فى هـذه المرة ولا أمام الحدود ، بل على سواء الحد الصحيح

ومن الأراجيح الفكرية التى تجاوزت الحد جيئة وذهوباً أرجوحة الكلام فى مشاهدات السائحين ، أو تعليقات الناظرين إلى الأمم من عرض الطريق ؛ فقد أنكرناها وغلونا فى إنكارها كأن النظرات العارضة لا تميز أمة من أمة ولا مدينة من مدينة ، وكأنها لا تطلب لذاتها فى بعض الأحيان للدلالة على حكم المفاجأة الأولى ، وكثيراً ما تكون المفاجأة الأولى هى المميز الواضح بين الناظرين كما تكون هى المميز الواضح بين المنظورات

كان « فيليب جويدالا » الأديب الأسبانى أصلا والإنجليزى نشأة يعبر بالقاهرة ، فسألته : أتنوى أن تكتب شيئاً عن رحلتك؟ فقال ضاحكا : لا أظن أن أيامى القصيرة فى هـذه الرحلة تكفى لتأليف الكتب فى موضوعها . ثم قال : لعلى أنا السائح الوحيد الذى قضى فى روسيا نحو أسبوع ، ولم يخرج منها بموضوع كتاب .

ومراد الأديب بما قال أن يسخر من عجلة المؤلفين فى الحكم على الشعوب التى يعبرون بلادها ولا يطيلون المقام بين أهلها ، وهو على حق فى هذه السخرية إذا كان الموضوع الذى يتصدى له أولئك المؤلفون العابرون مما يحتاج إلى إطالة الدرس وكثرة المراجع والأسانيد ، ولكن السخرية جائرة على أولئك المؤلفين إذا كان همهم الأكبر تسجيل ما شاهدوه وما أحسوه ووقع هذه المشاهدات

فى أذهانهم ومخيلاتهم للوهلة الأولى ، فإننا نخسر كثيراً من حقائق المشاهدات إذا أهملنا منها الجانب الذى يفاجئنا بآثاره النفسية ، ولو تغير حكمنا عليها بعد ذلك ، لأن الآثار التى تتغير هى أيضاً صورة من صور الدلالة ، ولون من ألوان الشعور والتفكير .

خطر لى هذا الخاطر وأنا أستمع اسماً من الأسماء تغلب فيه النسبة إلى بلد من البلاد المصرية .

فرجعت بى الذاكرة إلى العهد الذى كانت النسبة الإقليمية تغلب فيه على معظم الأسماء إن لم تغلب على جميع الأسماء .

فكنا نسمع مثلا أسماء : على الجرجاوى ، وحسن الأسيوطى ، ومحمد الشرقاوى ، وأحمد الفيومى ، وحسين المنياوى ، وموسى الشندويلى ، ومحمود الدمنهورى ، وكثيراً من أشباه هذه الأسماء المنسوبة إلى الأقاليم .

ثم عبرت فترة على الديار المصرية قلت فيها الأسماء المنسوبة ، ثم أوشكت أن تزول .

ألا يدل مجرد الاستماع إلى أسماء هذين الجيلين على تاريخ الوطنية المصرية منذ خمسين أو ستين سنة ؟ ألا يفهم منه أن المصريين قد شعروا بوطن عام تنطوى فيه الأقاليم بعد أن كانت أوطانهم فى رأيهم هى تلك الأقاليم التى حجبت عنهم النظر إلى « الوطن العام » .

وتسمع بين الأسماء اسم البحيرى والشرقاوى ولا تسمع اسم الغرباوى أو الغربى منسوباً إلى إقليم الغربية ، بل ينسب الناس أبناء هذا الإقليم إلى بلادهم : كالطنطاوى والدسوقى والمحلاوى والسنطاوى ، وغيرها من المنسوبات إلى بلاد الغربية وقراها .

فهل من العجلة أن يفهم من ذلك أن التقسيمات الإدارية لم تكن مما يحتفل به المصريون فى عهدهم الغابر . وأن أسماء الحكومة غير أسماء الشعب فى لغة الجماهير ؟ ألا يلاحظ من هذا أن الموقع هو المقصود من نسبة البحيرى والشرقاوى وليس هو الاسم المصطلح عليه فى دفاتر الحكومة عند تقسيم المديريات ؟

ويحضرنى لهذه المناسبة ما لاحظته على الأسماء العربية فى بلاد السودان

ففى هذه البلاد يكثر اسم : أبو بكر وعمر وعثمان ، ويوجد اسم مروان والزبير ومعاوية وشرحبيل ، ويقل اسم على وحسن وحسين وجعفر وزين العابدين ، ويحدث ذلك الآن غير متعمد وغير ملحوظ ، ولكنه فى بداية أمره كان متعمداً ولا شك لكثرة المهاجرين إلى السودان من الأمويين بعد زوال الدولة الأموية ، وكثرة المهاجرين إليه من العباسيين بعد ظهور الفاطميين .

أما فى مصر حيث أقام الفاطميون زمناً طويلا ، فليس أشيع بين الأسماء العربية الإسلامية من اسم الحسن والحسين وعلى وسائر الأسماء العلوية ، وقس على ذلك أسماء المسلمين فى إيران وبعض الأقاليم العراقية والهندية ؛ فإن أسماء الخلفاء فيها — ما عدا اسم على — من أندر الأسماء .

وندع الأسماء ونستمع إلى نداء الباعة ، أو ننظر إلى زفة الجهاز والشوار ، أو نقرأ بعض العناوين على أبواب الدكاكين والأماكن العمومية .

فما ذا تفهم من « العبداللاوى شيلة جمل » ، حين ترى أن المنادى بهذا النداء السخيف يحمل فى يديه وحجره عشراً من هذا العبداللاوى الذى ينوء الجمل بواحدة منه ؟

وما ذا تفهم من اللحاف الذى يحمل وحده على مركبة ، أو الكراسى القليلة التى تحمل على مركبة أخرى حين تعلم أن البيت كله ينقل بعد ذلك على مركبة واحدة تتسع لحمولة عشر مركبات من هذا القبيل ؟

ألا تفهم من هذا وذاك ولعاً بالمظاهر الكاذبة يبلغ حد الجنون؟ ألا يصدق وصف الجنون على هذا الولع ، لأنه يطلب المظهر ، ولو لم ينخدع به أحد من الناس ؟

إن الولع بالمظهر الخادع فيه بعض العقل أو بعض الذكاء .

أما الولع بالمظهر الذى لا يخدع أحداً ولا يخطر على بال الآدمى أنه قابل للخديعة والانخداع ، فأصدق ما يوصف به أنه ضرب من الجنون ، وأنه يدل على نقص فى إدراك الحقائق وتصورها ، لا يستقيم عليه حال .

وليس فى وسعنا أن نعيد هنا أسماء الأماكن العامة أوعناوين

الدكاكين كما نقرأها ويقرأها من يشاء ، لأننا نمس بها أناساً من الأحياء لا نعني ذواتهم بما نقول ، فنكتفي من ذكرها بالإشارة إلى مرادفها ، أو مايدل على مثل معناها ومثل ما تشتمل عليه من المتناقضات والأعاجيب

فما ذا تفهم إذا عبرت الطريق فرأيت مدرسة للبنات تدعى مدرسة الانشراح ، وحانة تدعى حانة الحكمة ؟ وما ذا تفهم إذا قرأت « جزار الخيرات » وحانوت السلامة ؟

أمثال هذه العناوين تدل على كثير ، وهي على هذا لا تحتاج إلى أكثر من لفتة في طريق .

وإذا نزلت بمدينة إسلامية في شهر رمضان فلم تر مسلماً واحداً يحمل سيجارة يدخنها ، ورأيت في كل شارع مشهود خمس حانات ، فما ذا تفهم من حقيقة الإيمان وحقيقة الأخلاق ونصيبها من الصدق والصراحة في تلك المدينة ؟ وما ذا تفهم إذا مررت فيها بمائة مسجد ولم تجد فيها جميعاً ما يملأ عشرة مساجد ؟

إنك لتفهم من هذه النظرات العرضية ما يستحق أن يفهم على الأقل وأن يلاحظ وأن يتجاوز الملاحظة إلى التسجيل .

فإذا كان هذا الفهم مما يتغير بعد النظرة الأولى ، فذلك من دواعي الحرص عليه لا من دواعي إهماله وصرف النظر عنه ، كما يحرص على كل ملاحظة إنسانية يخاف عليها الزوال السريع .

لقد ظلمنا « معرفة الطريق » ، وأفرطنا في الأنحاء عليها ، فوجب أن نعود بها إلى حد من القصد والإنصاف ، لأننا محتاجون إلى سرعة الملاحظة ، ومحتاجون إلى سرعة الاستدلال ، ومحتاجون إلى تسجيل الأطوار المتعاقبة للحقيقة الواحدة في حالة المفاجأة وحالة الروية والمراجعة .

أما إذا قيل إن هذه المعرفة التي نسميها بمعرفة الطريق قد تسمعنا ما لا يستحق السماع وتسجل لنا ما لا يستحق التسجيل فالخطب هنا يسير وموضع الفصل فيه غير بعيد ، لأننا خلقاء أن نذكر دائماً أن النظر الذي لا يرى من النظرة الأولى ما يستحق أن يقال : لن ينفعنا بشيء ذي بال بعد التمحيص الطويل والتنقيب الكثير

عباس محمود العقاد

من التاريخ الإسلامي :

عشـــية وضحاها

للأستاذ علي الطنطاوي

هبطت ليلة الثلاثاء (١٥ رجب ٤٨٤ هـ) على قصر الملك الشاعر ، وهو لا يزال على العهد به منذ عشرين عاماً ، سابحاً في النور ، رافلاً في حلل النعيم ، ولا يزال أهله سادرين في أفراحهم ، واثقين بدهرهم ، مطمئنين إلى سعدهم ، ولم يخفهم ما رأوا البارحة من طلائع الفاجعة ونذرها ، إذ أطبقت سحبها سوداً متراكبات ترتجس بالرعد ، وتنبجس بالبرد ، وتعزف رياحها الهوج العاتيات ... لأنهم كانوا على يقين من زوالها ، وكانوا يرجون من بعدها صباحاً طلقاً ، ضاحك الطلعة ساجع الطير مزهر الروض .

كذلك عودتهم الأيام حين غمرتهم بنعمها ، وأفاضت عليهم متعها ؛ ولم تمسك عنهم خيراً يطمع فيه عاشق ولا شاعر ولا ماجد شريف . وكان للملك من نفسه الكبيرة جيش إذا افتقد الجيش ، وكان عظيم الثقة بها والاعتماد بعد الله عليها ، وكان فذاً قد جملته خلائقه وما ورثه الجدود ، بطلا في الأبطال ، فلم تنل من حماسته هذه الأحداث التي كرّت عليه فجأة بعد ما طال أنسه بالدعة ؛ وبعد ما نام عنه الدهر فطالت نومته ، وأضفى عليه ثوب السعادة فامتدت سعادته .

وكان قد نزل به في يومه ما لو نزل ثمّلك غيره لطارت نفسه شعاعاً ، لخار وسُقط في يده فلم يعرف له منطرباً . أو انصدع قلبه وانخلع فؤاده ، فخضع واستسلم ، ولكن المعتمد بن عباد لم يكن ليذل ولا ليجزع ، بل احتمل هذه الشدائد صابراً عليها ، معداً العدة لدفعها .

لقد تجمعت عليه في يومه بلايا ثلاث كانت كالحلقات في سلسلة أسره : انقلب عليه حليفه القوي أمير المسلمين ابن تاشفين الذي أعانه على حرب الأسبان ، وجاءته الأخبار عنه أنه قطع المجاز[1] أمس بالجيش العرمرم لم يعده هذه المرة للأسبان ، ولم يسقه ليذودهم به عن الوطن الإسلامي ، وإنما أعده لحرب ابن عباد ، وساقه عليه ليزيله به عن عرشه ، ويقتلعه من كرسيه . ولقد أذكى ابن تاشفين حمية جنده ، بأن أراهم في هذا الزحف قربة إلى الله ، وأنه في سبيله ، وأنه ما أراد به إلا عز الإسلام بحطم هذه العروش الصغيرة ، وهذه الممالك المزوّرة :

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

فقد أطمع هذا التفرق العدو حتى أقدم على هذه الدويلات ، فذلت له كلها وخضعت ، ورضخت له بالأتاوة[1] ، وكان الأعداء هم يؤدونها عن يد وهم صاغرون ؛ وما ينبغي للمسلمين إلا دولة واحدة عليها أمير واحد ، وما جزيرة (الأندلس) إلا ولاية في دولة المسلمين ...

بذلك أضرم أمير المسلمين الحماسة في صدور قواده وجنده من البربر ، فأقبلوا يطوون المراحل شوقاً إلى حرب هذا الذي فرق جماعة المسلمين وأطمع العدو فيهم ، (المعتمد) الذي كان بالأمس الداني صديقهم وحليفهم وكان مُضيفهم ، وكانوا يتغنون بما رأوا من عجيب الكرم وما أوتيه من بارع الخلال .

ثم إن هؤلاء الأجناد الذين كان بعث بهم أمير المسلمين ليكونوا في ثغور الأندلس جنداً للمعتمد وعوناً له على عدوه وعدو الإسلام : الأسبان ، واختارهم — لغرض يريده — من فرسان المرابطين ، وأهل الشدة والنجدة فيهم ، هؤلاء الفرسان قد تركوا بالأمس ثغورهم لما بلغهم زحف أميرهم ، وأقبلوا على حرب الملك العربي النبيل يؤثرونها على مواقعة الأسبان ، ومروا يطحنون في طريقهم الأرباض والقرى ، يأخذونها أخذ الفجاءة ، ويدعسون[2] مآثر العمران ويحطمون الجنان ، وجابوا في هذه الكرة الجائرة أودية كانت تميس بغلائل الربيع ، وربُا حالية بالزهر ، وضياعاً عامرة ممرعة ، فتركوها من ورائهم قاعاً صفصفاً وخلوها بلاقع ، فكأنما مرت عليها ريح سموم محرقة لا تبقي ولا تذر !

وكانت ثالثة الأثافي ، هذه الثورة التي قدح زنادها ، ونفخ فيها دعاة الخصم المغير ومن شرى ضمائرهم بماله ، فكادت تجعل

---

(١) مضيق جبل طارق .

(١) هذا هو معنى رسخ لا كما تستعمل اليوم .

(٢) الدعس الوطء الشديد وهو من العامي الفصيح ، وبعض الصحفيين عندنا (يتفاصحون ...) فيكتبون دهست السيارة .. بالهاء بدل العين !

على المعتمد ، إشبيلية دارة ملكه ناراً ، ولكن الله أمكنه منها فأطفأها قبل أن تضرى ، وحكمه فى مجرميها ، فأبى له نبل محتده ، وكرم طبعه ، إلا العفو عنهم عفو القادر المتمكن ، وحباهم حباء الجواد المحسن !

* * *

لم يحفل الملك وقطان قصره هذه الزيايا ، وعادوا منها بما عودتهم الأيام من غلبة الجد وتمام السعد ، وظنوها فى جنب ما ألفوا من الخفض وعرفوا من اللين ، كالخال الأسود فى وجه الغانية الغيداء ، لا يجيء ليسوده ولكن ليتم جمال بياضه . والخدر يعرف الصحيح قيمة صحته ، وسحابة الصيف لا تغيم حتى تنقشع ...

وأوى الملك إلى سريره بعد ما صرم أكثر ليله يعدّ قوته ويقيم مسَالحه ، وكان يؤنسه أن يستمع فى هدأة الليل إلى هذا الهتاف البعيد ، وإلى صليل الأبواق ، وهزيم الطبول ، وهو يطرز حواشى السكون فى هذا الليل الساجى ، إنهم جنده الذين خاضوا معه لجج القتال المر ، وشاركوه جنى النصر الحلو ، على أبواب قرطبة دار الصيد الأعزة من بنى أمية يوم فتحت له أبواب قرطبة ، وفى (الزلاقة) يوم ساق (الأذفونش) فيالقه وجيوشه ، ليمحو بزعمه الإسلام من الأندلس فحى جيشه ، ولولا المعتمد وجنده ما هزم الأذفونش ، ولكان المرابطون هم أصحاب الهزيمة يوم الزلاقة ...

وأغفى الملك وهو يداعب ذكرى ذلك الظفر ، ويطوى سمعه على ضجيج جيشه الذى يحبه ويعتز به ، ويود لو أن هذا الجيش قصر عزمه وبأسه على قتال الأسبان ، ولم يسيء إلى البطولة بحربه الأخوان المسلمين ... ورأى الملك فى منامه كأن هذا النشيد المدوى الذى نام عليه قد قوى واستفاض حتى رجّمت أصلاد إشبيلية صليله وعزيفه ، وعظم إرعاد تلك الطبول حتى أوشك أن يهز سريره بين جدران قصره ، وخالطه صراخ وضوضاة ، ففتح عينيه وأفاق مرتجفاً ، وأصاخ فسرعان ما أدرك : إنه العدو قد طرق المدينة ، إنهم فرسان البربر الذين قلبوا له ظهور المجانّ ، فتخلوا عن ثغورهم حيال الأسبان وأقبلوا عليه إقبال الذئاب الكواسر ... أولئك هم الذين كانت تؤنسه أصواتهم ، فيطوى عليها سمعه حين ينام !

* * *

وتلفت حوله فلم يجد إلا حرس القصر ، وما كان حرس القصر رجال حرب ، ولا فرسان ضراب ؛ وأحس بالخطر ، ورأى أنه قد كاد يفقد كل شيء . ولكنه لم يفقد الشرف ولا الشجاعة ولا النبل :

إن يسلب القوم العدى[1] ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطباع أيسلب الشرف الرفيع

ولا يزال سيفه فى يده ، فخرج به وما عليه إلا غلالة رقيقة ، لم يمهلوه حتى يلبس لَأمته ويَدّرع :

وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفوع

وأراد حرسه وأهله أن يجنبوه هذا الهلاك الأكيد ، وأن يحسّنوا له الموادعة حتى تنكسر حدة الهجوم ، وتمكن البادرة :

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع

فأبت له مروءته وحميته ، ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع ، أو دونه الكفر ، وأبت له ذكريات النصر ومواريث الجدود ...

وألذ من طعم الخضوع على فمى السم النقيع

أمن الموت يفر ، وقد كان يتعشقه ويطلبه ويسعى إليه ، ولا يفكر إذا خرج للقائه فى أهل ولا ولد :

ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

ولكنه كان يريده موتاً شريفاً نقياً ، كالفتاة المكنونة فى الحجاب ، لم تدنسها نظرات الإثم ولم تملق بجمالها الريب ، وكان يهوى لقاءه فى الملحمة الحمراء ، فيلحقه فيفر منه ويتأبى عليه ! .. أما هذا الموت الذى يقبل عليه فى غرفته إقبال اللص ، ويلقاه فى ضيق الدهاليز لا فى رحب الميدان ، وفى سُدْفة الليل لا فى سَفَر النهار ، ويريده فى غلالة الشاعر لا فى درع البطل ، فهو لا يطلبه ولا يحبه ، بل لقد أحنقه ذلك عليه ، وملأ صدره غيظاً منه ، وكرهاً له ، حتى نذر لئن واجه الموت هذه الليلة ليقتلن الموت !

* * *

ولئن هو لم يقتل الموت ، فلقد أحيا لملكته الحياة ، ولقد

(١) يكتب بالياء وإن كان أصله الواو لمكان الكسرة التى فى أوله — اللسان . وقد قال الشاعر هذه القطعة الرقيقة بعد أسره .

وفى نذره فرد هذه الغاشية التى اقتحمت عليه حصنه ، على حين غفلة من أهله ، كما يردّ الهزبر الذئاب عن غابه .

* * *

وضوّأ النهار أشبيلية ، وهى مقسمة الفؤاد بين فرح بالنصر ، وجزع من الخطر ، وكان جند الملك الأشاوس قد وقفوا للدفاع عنها ، لا يفتأون(١) كلما سمعوا همسة ريح ، أو هدير نهر ، أو صفير طائر ، أو نبأة خفية بين الأرض والسماء ، يثبون إلى سيوفهم ، يتطلعون أبداً إلى الطرق من فرط تشوقهم للقاء هذا الخصم المغير الذى كان بالأمس الحليف النصير ... فإذا لم يروا أحداً رجعوا إلى مسالحهم يقظين مرتقبين ، وكانت الحصون حول البلد ، وفى أطراف المملكة ، محشوداً فيها الجند من كل كمىّ كأن قلبه من ثباته جلمد الصفا ، وكان فى أكبرها وأمنعها ، شبلا ذلك الأسد ، وفرعا تلك الدوحة الكريمة الباسقة ، الراضى بالله والمعتدّ بالله ، ولدا المعتمد ابن عباد ...

وكان عصر ذلك اليوم وأهل إشبيلية لا يزالون يتغنون بمأثرة الملك الفارس ، وقد فترت يقظة الجند حين توالى الأمان واطمأنوا إلى بُعد العدو ، فاستراحوا قليلا بعد هذه الليلة الجاهدة ؛ فى تلك الساعة صرخ النذير كما ينفخ فى الصور فتجمع العسكر المكدود على عجل ، وصدمتهم فرسان البربر من جهة البر ومن الوادى صدمة تحط الصخر من ذراه ، ولكنهم وجدوا المعتمد أثبت من الصخر ، وأيقظ من الصقر ، فارتدوا بعد ما فعلوا بالمدينة فعل الزلازل واستراحت إشبيلية أياماً ، ثم جاء يوم الواقعة !

* * *

وفى يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ ارتجت أشبيلية بأضخم جيش وطىء ثراها ، جيش أمير المسلمين ابن تاشفين ، الذى حشد له من غطارفة المرابطين كل بطل غشمشم ، يقوده ابن أخيه كبش القوم وفارسهم سير بن أبى بكر ، وجمع له فيه من قبائل البربر جنداً مقاتلة كأنهم من طول ما ألفوا الخيل قد ولدوا على ظهورها ، بعدة لهم ضخمة وعديد ، فسدوا مطلع الشمس ، وحطوا على البلد حط الجراد ، وطوقوه تطويق القيد ، وانضم إليهم فرسان الثغور ، ثم أطبقوا على ابن عباد كالسيل الأتى الدفاع ...

(١) كذلك يكتبها الناس والقاعدة أن تكتب همزتها على واو بعدها واو الجمع .

أثار المعتمد فى نفوس جنده حميتهم وكبرياءهم ، وأنشدهم أبرع أناشيد البطولة ، ولوّن لهم الموت بأجمل الألوان ، وعرض عليهم محاسن المجد وتهاويله ، فثبتوا وجاؤوا من فنون القتال بأعجبها وأشرفها ، وناضل الملك البطل حتى لم يبق مُناضل ، وضارب حتى تحطمت فى يده السيوف ، ودافع حتى استنفد آخر نقطة من القوة البشرية التى أودعها الله فيه ، ثم سقط مغسلا بدماء جراحه ، وتحطم السد فانطلق السيل ... ونفضت قصور الملك عن غيدها وكنوزها ، فعادت أطلالا ... وهوى الصرح الذى أقامه على النبل والحزم والكرم النفر البهاليل بنو عباد .

* * *

إن البطل الحق لا يستهويه الظفر حتى يستخفه ، ولا تعزه الهزيمة حتى تسحقه ، بل يتلقاها بعزم جلد وفؤاد ثابت ، وكذلك فعل المعتمد فلم تذل نفسه ولم يضرع ولم يتهافت . بل تلقى قضاء الله تلقى المؤمن ... وكتب إلى ولديه يستنزلها من حصنيهما حين قسره الغالبون فلم يجد إلا ذاك ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما ، وكانا فى حصنين أمنع من النجم . تهاوت الحصون وهما ثابتان ... ولكن ماذا ينفع حصنان وقد باد الملك وماد العرش وساد المرابطون ... فلما أطاعا ونزلا قتل الراضى على باب حصنه ، واستصفى مال أخيه وترك على شر حال ، ثم اقتيد المعتمد وأهله مجردين من الأموال ، مقيدين بالقيود الثقال ، ليلقوا ما قدر عليهم فى صحراء المغرب .

* * *

كان إذا خرج موكب المعتمد أطلت عليه كل فتاة فى حمص(١) تحترن صورته لتزين بها أجمل رؤاها ، وأحلى أحلامها ، وتطلع إليه كل شاب ينقش رسمه على شغاف قلبه ليجعله مثلا له فى المعالى ، وملأ عينه منه كل أندلسى لأنهم كانوا يحسون أنه عزّ لهم وفخر ، وأنه حبيب إلى قلب كل أندلسى ، وإن عاد مظفراً قاموا على طريقه يرشقونه بأجمل أزهار الجنة(١) . أما اليوم فقد خرجوا بغير ورد ولا زهر . خرجوا وما أعدّوا إلا عيوناً تبكى لو استطاعت بدل الدمع دماً ، وقلوباً تفديه بحبّاتها لو كان يمكن الفداء ، وجرى النهر ذلك اليوم متطامناً خافت الخرير ، لا يصخب

(١) حمص المغرب هى إشبيلية وتدعى الجنة

ولا يهدر ، كأنه هو الآخر قد أحسّ بالألم :

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا
من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

وكانوا ساكتين قد عقدت الذهلة ألسنتهم ، وأمسكت الأحزان وسيوف المرابطين أفواههم ، حتى الأطفال لم يكن فيهم من يبكى أو يصرخ ، حتى إذا قُدمت بنات الملك الأسير يجرهن جند من البرابرة جرّ الشياه إلى المسلخ ، وقد :

حط القناع فلم تستر مخدرة
ومزقت أوجه تمزيق أبراد

أوجه تزرى بالأقمار ، وأجسام ألطف من الياسمين الغض ، وأرق من شعاع البدر على البحيرة الصافية فى ليلة غرام . ثم طلع الملك لا تاج على رأسه ، ولا سيف فى يده ، ولا لواء يخفق على هامته ، ولا جند من حوله يفدونه بالأرواح ويبذلون دونه حرّ الدماء ؛ بل حوله جند من البربر ، وفى يديه قيود ثقال ، وما عليه إلا أطمار — تفجرت الأحزان مدامع ، وانشقت القلوب صرخات ، وتحركوا لنصرة الملك ، ولكن البربر كانوا خلالهم ومن فوقهم ومن تحتهم ...

حان الوداع فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فادى

ووضعوا الملك فى السفينة ، ومن حوله نساؤه وبناته مقرونات بالحبال ، مطرقات كاسرات الطرف تلوح قطرات دموعهن فى ضياء الشمس كاللآلى :

حموا حريمهم حتى إذا غلبوا
سيقوا على نسق فى حبل مقتاد

ورفع الملك رأسه ونظر إلى جنده ، وانتزع من آلامه ابتسامة لاحت على شفتيه كما تلوح خيوط الشمس لحظة خلال السحاب فى يوم غائم ، وحاول أن يقول فضاع صوته فى عويل الناس وصخب البربر ، وأراد أن يشير بيده التى طالما هز بها أعواد منبر وطالما أشار بها إلى ظفر . فحركت إليه الكتائب السود ، وطالما أغنى بها فقيراً ، وفك أسيراً ، وأجاز شاعراً ، وفعل بها المكرمات ؛ أراد أن يشير بها فأثقلها حديد القيود ، فأحنى رأسه وأطرق و ...

سارت سفائنهم والنوح يتبعها
كأنها إبل يحدو بها الحادى

* * *

وعاد الناس إلى بيوتهم وما يصدقون أنهم فقدوا المعتمد ابن عباد ... أفى عشية وضحاها ، يطمس كتاب كله مجد وكرم ألف فى عشرين سنة ؟ ألم يعد يطلع عليهم موكب الشاعر الذى يغنى للحياة أجمل أغانيها ، ولا الفارس الذى ينظم للبطولة أروع أناشيدها . إنهم لا يستطيعون أن يصدقوا ، فهرعوا (يثبتون) إلى تلك القصور التى ارتضاها لسكناه المجد ، واختارها الفن ، وأقام فيها النبل . فلما بلغوا أسوارها لاحت لهم من بعيد كأنها لا تزال عامرة بالملك الهمام . فلما اقتربوا منها لم يصافح أسماعهم صوت شاعر بنشيد ولا قائد بنداء ، ولم تأخذ أبصارهم علماً يخفق ، ولا راية ترفرف ، ثم بدت لهم الرياض وقد جف نبتها وصوّح زهرها ، والدور قد هدمت جدرانها وهدت أركانها ، وإذا القصر الذى كان يعبق بريّا القرنفل وشذا الفل تفوح منه روائح الموت ، وإذا تلك الغرف والمقاصير التى كانت تسطع فيها الأضواء فترقص أشعتها على العمد المزخرف والأساطين المنقوشة ؛ قد محى نقشها وطمس زخرفها وعشش فيها البلى ... هنالك علموا أنها قد وقعت الواقعة وكان ما قدر الله أن يكون :

عرينة دخلتها النائبات على
أسود لهم فيهـــا وآساد

وكعبة كانت الآمال تعمرها
فاليوم لا عاكف فيها ولا بادى

فمن للعفاة تعمهم بجدواه ؟ من للجيران تحميهم بواتره وتحييهم عطاياه ؟ من للفرسان الغطاريف يقودهم إلى النصر حين يخفى على الدليل سبيل النصر ؟

لقد ذهب من كان لهم ... فيا مَنْ يقصد الملك الشاعر ، إنه لم يبق هنا ملك ، إنها قد خلت منه داره ، وبعد مزاره :

يا ضيف ، اقفر بيت المكرمات فخذ
فى ضم رحلك واجمع فضـــلة الزاد

ويا مؤمـــل واديهم ليسكنه
خف القطين وجف الزرع فى الوادى

وأنت يا فارس الخيل التى جعلت
تختال فى عدد منها وإعداد

ألق السلاح وخـــلّ المشرفى فقد
أصبحت فى لهـــوات الضيغم العادى

* * *

ضلت سبيل النـــدى يا ابن السبيل فسر
لغـــير قصد فما يهديك من هادى

وجـــوب التثبت
فى المباحث العلمية قبل النقد
للأستاذ حسن أحمد الخطيب

اطلعت على كلمة فى العدد ٦٤٩ من الرسالة ، لحضرة الأستاذ الحقوق البغدادى الذى لم يشأ أن يعرب عن اسمه الكريم ، ولكنى – مع ذلك وقبل الرد عليها – أود لو يتقبل منى الأستاذ تحيتى وشكرى وثنائى عليه ، لتتبعه ما نشرته فى الرسالة الغراء ، ولأنه أتاح لى معاودة البحث مرة أخرى ، فخرجت أشد إيماناً ، وأرسخ يقيناً بصحة ما أنكره من بحثى السابق ، كما قيض لى فى كلتى هذه ذكر بعض الكتب الفقهية ، وكتب التفسير والحديث وتسجيل المراجع العلمية الصحيحة التى اعتمدت عليها .

اعترض الأستاذ فى كلمته قضية ، ذكرتها فى محاسن التشريع الإسلامى ، على أنها دليل على مراعاة الشريعة الإسلامية المساواة فى تكاليفها وأحكامها ، كما سقت قضايا وأدلة أخرى على تلك المزية .

والقضية التى اعترضها الحقوق فأنكرها هى : أن الربيّع بنت النضر لطمت جارية فكسرت ثنيتها ، فطلب أهل الجارية القصاص ، فأمر رسول الله به ، فجاء أخو الربيع أنس بن النضر ، وكان من خاصة الصحابة ، فقال يا رسول الله : والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيّع ، فقال رسول الله : كتاب الله القصاص ، فلم يزل أنس يقول لرسول الله ، حتى جاء أهل الجارية راضين بدفع الأرش ، فقضى رسول الله به » .

وظاهر من سياقة هذه القصة « فى مبحث المساواة فى التكاليف والأحكام » أنها إنما سيقت هى ونظائرها للاستدلال على أن الأحكام الشرعية تطبق على جميع أفراد المسلمين بلا تمييز ، فلا تسقطها صلة بعظيم ، ولا تتبدل بشفاعة ولا وساطة من كبير أو ولى حميم ؛ وإن كان أنس بن النضر الذى هو من خاصة الصحابة ، وله قدم صدق فى نصرة الإسلام ، والجهاد فى سبيل إعلاء كلمته ، كما يؤخذ منها أن الحكم فى مثل هذه القضية ليس متعيناً فى القصاص إلا إذا استمسك به المجنى عليه أو ولى الدم ، أما فى حالة العفو أو الرضا بالأرش أو الدية فانه لا يحكم بالقصاص « وسيأتى إثبات ذلك » .

بيد أن الأستاذ اعترض هذه القصة السابقة ، وأنكر حصولها وهو فى كل ما أتى به فى كلمته لم يتعد وجهين اثنين لإثبات رأيه :

الأول أن القضية المذكورة (قضية الربيّع) مدسوسة فى ثنايا قضايا التشريع وهى عنه جد بعيدة .

الثانى – أن القصاص من حقوق الله ، وليس من حقوق العبد ، ورتب على ذلك نتيجتين : الأولى أنه ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسقط حقاً من حقوق الله . الثانية أن رضا المتعدى عليه بالأرش أو الدية لا يسقط القصاص عن الجانى .

ردنا على الوجه الأول

يقول الأستاذ الحقوق « إن القضية مدسوسة فى ثنايا قضايا التشريع وهى عنه جد بعيدة » ، ويكتفى بهذا النفى والإنكار ، فلا يقيم دليلا عقلياً ولا نقلياً على ما يقول ، ولا يذكر مرجعاً علمياً واحداً يوافقه على هذا الزعم ، فهو فى إنكاره هذا لا يجرى على الأسلوب العلمى ، ولا على مقتضى قوانين البحث والمناظرة ،

كذلك ذهب الملك الشاعر البطل الذى كان فى ملوكيته وفنه ونبله ، تمثالا للانسان الذى كانت تتمنى كل حامل فى الأندلس أن تلده ، وكل ناشىء متطلع إلى العلا أن يكونه .

الملك : الذى كان زمانه كله فجراً رخياً ناعماً ، وأيامه كلها ربيعاً بهياً باسماً

الشاعر : الذى كان شعره لحن كل قلب مدلّه بالجمال ، مفتون بالفن

البطل : الذى بنى لقومه مفاخر فى السناء ومآثر .

وكذلك ألقى الستار (بين عشية وضحاها) على ملحمة فخمة فيها أجمل مشاهد الهوى والشباب والبطولة والظفر والسماحة والكرم والشعر والطرب والغنى والترف ، ورفع عن مأساة من أفجع المآسى التى (عرضت) على مسرح هذا الكون[1] !

على الطنطاوى

(١) ولعل الله يلهم هذا القلم الضعيف حديث المأساة ليكتبه للقراء .

أما نحن فنسوق له ها هنا حديثاً صحيحاً مروياً في أكثر أمهات كتب الحديث ، هو الذي اعتمدنا عليه في تلخيص القضية التي قال عنها إنها مدسوسة ، والقصة التي جحد صحتها. جاء في الجزء السابع من كتاب نيل[1] الأوطار للإمام الشوكاني ص ٢٠ : باب القصاص في كسر السن ، عن أنس أن الربيّع عمته كسرت ثنية جارية ، فطلبوا[2] إليها العفو ، فأبوا[3] ، فعرضوا الأرش ، فأبوا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبوا إلا القصاص ، فأمر رسول الله بالقصاص ، فقال أنس بن النضر يا رسول الله : أتكسر ثنية الربيّع ، لا والذي بعثك بالحق لا تُكسر ثنيتها ، فقال رسول الله: يا أنس، كتاب الله القصاص . فرضي القوم فعفوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره ، رواه البخاري والخمسة إلا الترمذي » ، هذا الحديث الذي رواه البخاري ، وذكر في كثير من كتب[4] الحديث الصحيحة — هو الذي استندنا إليه في ذكر قضية الربيع ؛ فإذا أصرّ الأستاذ الحقوقي على أنها مدسوسة بعد هذا البيان فليتبع في نفيها الطريقة العلمية والتدليل المقبول — إن استطاع — بأن يوجه إلى الحديث الذي رواها نقداً داخلياً موجهاً إلى متنه ، أو نقداً خارجياً موجهاً إلى رواته ، أو يذكر لنا على الأقل رأياً ، ولو لرجل واحد من أهل التعديل والتجريح يطعن في صحته .

ردنا على الوجه الثاني

هنا كان عجبنا أشد ، فإن الذي يعرض لتقرير قاعدة شرعية ليرتب عليها أحكاماً — ينبغي أن يتثبت ويتحرى ، ويرجع إلى كتب الفقه الإسلامي ، وهي كثيرة في مختلف المذاهب .

يقول الأستاذ : إن القصاص — كما هو معلوم — من حقوق الله وليس من حقوق العبد ، وحينئذ فليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضمه ، كما أن رضا المعتدى عليه بالأرش أو الدية لا يسقط القصاص عن الجاني .

شُدهت لهذه القاعدة ، ولما ترتب عليها من النتيجتين ، وغلب على ظني أن الأستاذ الحقوقي يقرر القاعدة التي بنى عليها القانون الجنائي الفرنسي . وبعض القوانين الغربية ، أو أنه متأثر بها ، فأراد أن يطبقها على ما قررته الشريعة الإسلامية ، فنأى عن الحقيقة ، وأخطأه التوفيق :

فإننا إذا رجعنا إلى كتب الفقه الإسلامي، وإلى القرآن الحكيم الذي هو الأصل الأول لتلك الشريعة ، وإلى الأحاديث الصحيحة — اتضح لنا ثبوت هاتين الحقيقتين :

الحقيقة الأولى — أن القصاص من الحقوق التي غلب فيها حق العبد — كما صرح بذلك علماء الحنفية ، وليس كما قال الأستاذ الحقوقي إنه « ليس من حقوق العبد » — جاء في الجزء الرابع من حاشية العلامة ابن عابدين المسماة رد المحتار على الدر المختار في فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ص ٣٢٨ من كتاب القضاء: « أن المحكوم به أربعة أقسام : حق الله المحض ، كحد الزنى أو الخمر ، وحق العبد المحض وهو ظاهر ، وما فيه الحقان وغلب فيه حق الله تعالى ، كحد القذف أو السرقة ، أو غلب فيه حق العبد كالقصاص ، والتعزير » ، نقل ذلك ابن عابدين عن الرسالة المشهورة في فقه الحنفية المسماة الفواكه البدرية لبدر الدين محمد الشهير بابن الغرس .

الحقيقة الثانية — أن حق العفو المسقط للقصاص — في الحالات التي يجب فيها القصاص ، سواء أكان ذلك في النفس أم في الجراحات والأطراف — مقرر في الشريعة الإسلامية لمن له حق القصاص سواء أكان بلا مقابل ، أم في مقابل الدية أو الأرش ، هذا الحق ثابت بالكتاب الكريم ، وبالحديث الصحيح ، كما أنه منصوص عليه صراحة في كتب فقهاء الإسلام :

(أ) قال الله تعالى في سورة البقرة : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » ، فحق العفو عن القصاص ثابت بقوله جل شأنه : « فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » قال جار الله الزمخشري في كتابه الكشاف عند تفسير هذه الآية « هذه توصية للمعفو عنه والعافي جميعاً ، يعني فليتبع الولي القاتل بالمعروف بألا يعنف به

(١) طبعة الحلبي سنة ١٣٤٧ الهجرية .
(٢) أي طلب أهل الجانية .
(٣) أي أهل المجني عليها.
(٤) روي في أكثرها بمعنى واحد وإن اختلفت ألفاظه اختلافاً يسيراً.

ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة ، وليؤد إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان بألا يمطله ولا يبخسه ، (ذلك) الحكم المذكور من العفو والدية (تخفيف من ربكم ورحمة) لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرم العفو وأخذ الدية ، وعلى أهل الإنجيل العفو ، وخيرت هذه الأمة « يقصد الأمة الإسلامية » بين الثلاث : القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيرا » اهـ ، ومثل ذلك فى سائر كتب التفسير .

(ب) ورد فى الجزء الثانى عشر[١] من فتح البارى بشرح صحيح البخارى ص ١٧٥ عن ابن عباس قال : كان فى بنى إسرائيل القصاص ، ولم تكن فيهم الدية ، فقال الله لهذه الأمة : كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر الآية ، فمن عفى له من أخيه شىء ، قال ابن عباس : فالعفو أن يقبل الدية فى العمد ، قال فاتباع بالمعروف أن يطلب بمعروف ويؤدى بإحسان . وورد فى الجزء السابع[٢] من نيل الأوطار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إما أن يفتدى وإما أن يقتل » رواه الجماعة ، لكن لفظ الترمذى : إما أن يعفو وإما أن يقتل » اهـ .

وعن أبى شريح الخزاعى[٣] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أصيب بدم أو خبل ، والخبل الجراح ؛ فهو بالخيار بين إحدى ثلاث : إما أن يقتص ، أو يأخذ العقل[٤] ، أو يعفو ، فإن أراد رابعة فخذوا على يديه » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(حـ) أما النصوص الفقهية التى وردت فى كتب الشريعة الإسلامية فى هذا الشأن فإنها تجل عن الحصر ، منها ما جاء فى الدر المختار ورد المحتار[٥] فى كتاب الجنايات ، عند ذكر الفروق بين القصاص والحد : « يصح عفو القصاص لا الحد » ، وجاء فى موضع[٦] آخر فى مبحث الجنايات : « ويسقط القود[٧] بموت القاتل لفوات المحل ، وبعفو الأولياء ، وبصلحهم على مال ولو قليلا ، ... إلى آخره » .

وجاء فى بداية المجتهد[١] لابن رشد القرطبى فى كتاب القصاص : قال مالك لا يجب للولى إلا أن يقتص أو يعفو عن غير دية إلا أن يرضى باعطاء الدية القاتل ، وهى رواية ابن القاسم عنه . وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور وداود وأكثر فقهاء المدينة من أصحاب مالك وغيره : ولى الدم بالخيار إن شاء اقتص ، وإن شاء أخذ الدية رضى القاتل أو لم يرض ، وروى ذلك أشهب عن مالك إلا أن المشهور عنه هى الرواية الأولى » .

أفبعد هذه النصوص الصريحة فى أن القصاص يغلب فيه حق العبد ، وأنه يسقط عن الجانى — بالعفو أو أخذ الدية — يصح أن يقال إن القصاص ليس من حقوق العبد ، وأنه ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بسقوطه إذا اختار أولياء الدم أو المجنى عليه أخذ الدية أو العفو ؟ ! ! وهل يجوز أن يقال : إن رضا المعتدى عليه بالأرش أو الدية لا يسقط القصاص عن الجانى بعد ما سقناه من نصوص الكتاب والأحاديث ، وآراء علماء الفقه والتشريع الإسلامى ؟ ! !

لقد كنا ننتظر حقا من الأستاذ الحقوقى — قبل أن يعترض — أن يبحث الموضوع فى مصادره الإسلامية ، ومراجعه الفقهية ، وأن يعرف الفرق الذى لحظه فقهاء الإسلام بين القصاص والقطع فى السرقة ، فإن الأول يغلب فيه حق العبد ؛ أما الثانى وهو وجوب قطع اليد فى السرقة بعد ثبوتها ، فإنه حق الله تعالى[٢] ، ولذا لا يملك المسروق منه العفو بعد وجوب القطع ولا يورث عنه ، كما أنه لا يملك الخصومة بدعوى الحد وإثباته مجردة عن طلب المال .

هذه كلمة توخيت فيها الاعتدال والنصفة فى البحث ، والأمانة فى النقل ، لا أبتغى بها سوى إحقاق الحق ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

حسن أحمد الخطيب

(١) المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٨ الهجرية .
(٢) ص ٦ .
(٣) روى فى كتاب نيل الأوطار .
(٤) الدية .
(٥) جـ ٥ طبعة سنة ١٣١٨ هـ .
(٦) جـ ٥ ص ٣٦٨ .
(٧) القود القصاص .

(١) الجزء الثانى ص ٣٤٥ طبعة الحلبى سنة ١٣٣٩ هـ .
(٢) الجزء الثالث من رد المحتار ص ٢١٤ طبعة سنة ١٣١٨

العـــزاوى

للدكتور جواد على

سيبلغ صديق الأستاذ المحامى عباس العزاوى فى هذا العام من العمر الخامسة والخمسين ، وإذا ذكر العزاوى فى العراق ذكرت الكتب والمكتبات والمخطوطات . فالأستاذ هاو معروف من هواة الكتب القديمة ومن هواة الخطوط ، وقد جمع فى بيته مجموعة ثمينة من الخطوط القديمة وهو يحدثك عنها وعن صاحبها وبائعها وكيف وصلت إليه ، ومميزات الخط الفلانى وعلاقتـه بالخطوط الباقية حديثاً تدرك من خلاله مبلغ حب هذا العالم لكنوز الأجداد الأقدمين .

وهو لا يريد من وراء ذلك مكسباً لأنه لا يتاجر بالكتب ولا بالخطوط ولا بالمخطوطات ، وهو لا يبتغى من وراء ذلك أجراً لأنه ليس بحاجة إلى هذا الأجر . ولا هو فى حاجة إلى أحد . ثم هو لا يتبجح بمجموعته الثمينة شأن أغلب أصحاب الكتب والمكتبات والنوادر . يعرضون مايجمعونه على الناس ليقال عنهم إنهم من أصحاب التحف والنوادر والجاه العريق .

والعزاوى من أبعد الناس عن التبجح والظهور فهو لايعاشر إلا بطانة معروفة من الأدباء هى حاشيته وخاصته وجماعته وهى تعد ؛ ولا يرافق إلا ابنه « فاضل » من مكتبه إلى مقهى « بلقيس » على شارع أبى نواس حيث يجلس قرابة ساعة ثم يعود مع ابنه إلى البيت .

وقد كان يصاحبه أخوه المرحوم المحامى « على غالب العزاوى » إلى أكثر الأماكن ، وكأن أصدقاؤهما يقولون « ما أحب الأخوة » فقد كانا مضرب الأمثال فى الأخوة حقاً ، ولكن الجناة أبوا إلا أن يفرقوا بين الأخ وأخيه فقتلوا « علياً » على قضية خسيسة من حطام الدنيا وفرقوا بين عباس وعلى .

وهو لايعاشر الآن إلا صديقاً واحداً لازمه منذ عرف الحياة وهذا الصديق هو « الكتب والعلم » ونادراً ما تراه وهو بغير كتاب . والكتاب المحبوب إليه هو « كتاب التاريخ » وأحب كتب التاريخ إليه على ما أعتقد هى كتب التاريخ النادرة ولا سيما الكتب التى تبحث عن الفترة المظلمة السوداء وهى « فترة العراق بين احتلالين » وهى فترة مجهولة موحشة تبتدئ بسقوط بغداد على أيدى الغزاة المغول وتنتهى باحتـــلال الإنكليز لبغداد عام ١٩١٧ للميلاد .

وإذا ما حدثك العزاوى عن هـذه الفترة وتبسط معك فى الموضوع وسرد لك حوادث الدويلات التركية وأسماء الأمراء الذين حكموا العراق فى هـذه المدة الطويلة من مغول وأتراك وإيرانيين فمماليك ، فأنا على يقين من أنك ستخرج وتقول : ما هذه الطلاسم والتعاويذ ، ولا بد لك من الاستعانة بقاموس أو بمفتاح يحل لك رموز هذه الشفرة المعقدة التى لا يعرفها إلا القليل من أصحاب هذا العلم .

ولد الأستاذ عباس العزاوى فى سنة ١٣٠٨ للهجرة (١٨٩١م) فى البادية بين مضارب عشيرة العَزَّة ، وقد قتل والده محمد الثانى وهو لا يزال بعد طفل صغير . والعزة قبيلة عربية شهيرة انتشرت فى ألوية عديدة من ألوية العراق لا سيما فى لواء ديالى . وترجع فى الأصل إلى عشائر حمير من عرب الجنوب وتنتمى إلى قبيلة « زبيد الأصغر » المنتشرة فى بلاد ما بين النهرين والتى تفرعت إلى عدة فروع ، وتنتمى العزة إلى جدها الأعلى « عزيز » وبه تسمت فقيل لها « أعزة » جمع عزيز ثم « عزة » بالتخفيف .

جىء بالعزاوى سـنة ١٣١١ للهجرة (١٨٩٤ م) إلى بغداد فاستقر فى هذه المدينة وبها نشأ وترعرع وتثقف . وأتم التحصيل الابتدائى والرشدى على عهد العثمانيين . ثم عكف على دراسة العلوم الشرعية واللسانية على الطريقة العلميـة المعروفة فى ذلك الوقت فدرس فى جامع الخلفاء ، وهو من بقايا جامع الخلفاء العباسيين على المرحوم عبـــد الرزاق الأعظمى ودرس فى نفس الوقت فى « مدرسة مرجان العلمية » وهى مدرسة أمين الدين مرجان صاحب الجامع الشهير المعروف « بجامع مرجان » والخان المعروف باسمه أيضاً ، وقد أسست هـذه المدرسة على مثال المدرسة النظامية المعروفة فى عهد العباسيين ببغداد . وكان أستاذ المدرسة المرجانية هو المرحوم الحاج على علاء الدين الألوسى وهو من أسرة الألوسيين الأسرة العلمية المعروفة ببغداد .

ودرس فى مدرسة الحيدرخانه « المدرسة الداودية » على العالم الشهير المرحوم السيد محمود شكرى الألوسى صاحب التصانيف الشهيرة فى علوم الدين واللسان . وصاحب « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » وهو الكتاب الذى نال عليه الجائزة من المستشرقين الإسكاندنافيين .

وعرفت الأسرة الألوسية بالميل إلى الطريقة السلفية وبالأخذ بمبادئ الدين على طريقة السلف . فتأثر العزاوى على ما حدثنى به بهذه الطريقة فمال وما زال يميل إليها . وكان المرحوم الحاج علاء الدين الألوسى هو مرشده ودليله إليها . وكان رحمه الله يشير عليه وعلى أمثاله بأن يكونوا أحراراً فى اختيار المذهب الذى يريدونه وباتباع الطريقة التى يرون فيها صلاحهم على شرط أن يلجوا البيوت من أبوابها ، ومعنى ذلك النظر فى أقوال أصحاب المذاهب وما خلفوه رأساً ، فإذا أرادوا مذهب الشافعى فى الفقه نظروا فى كتاب « الأم » المنسوب إليه . وهكذا . وعلى هذا فإذا أرادوا الدين الصحيح فعليهم بالقرآن ففيه الهدى والفرقان وهو المرجع والأصل . وقد وجد أن طريقة السلف هى أقرب الطرق إلى نفسه وأحبها إليه فاختارها طريقة له .

وقد أجازه المرحوم الحاج على الألوسى بالإجازة العلمية فى ٦ جمادى الأولى من سنة ١٣٣٨ للهجرة (١٩٢٠ م) وتتصل إجازة الألوسيين بإجازات علماء الشام ، وعلى ذلك اتصلت إجازة المترجم بسلسلة إجازات علماء الشام . ودخل بعدئذ مدرسة الحقوق وتخرج منها فى سنة ١٣٣٩ للهجرة (١٩٢٤ م) ومارس المحاماة وما زال يمارسها حتى الآن .

فدراسة العزاوى إذاً دراسة علمية حقوقية وقد ساعده مسلكه العلمى على تفهم كثير من المشاكل التى تتعرض لها مهنة المحاماة . فكان يغرف من معين الفقه الإسلامى ليستفيد منه فى الفقه العراقى الحديث . وبرز فى الفقهين وامتاز على الأخص فى النواحى التى يلتقى فيها الفقه بالقانون . وتتبع نقاط الخلاف فيما بين الفقهاء ودرس مذاهب قدماء الفقهاء وآراءهم فى الجدل الفقهى مثل آراء ابن أبى ليلى الفقيه الشهير وابن شبرمة . واستفاد من هذه الدراسة الفقهية كثيراً .

واستفاد من حياة المحاماة كثيراً ، فباعتباره محامياً يراجع المحاكم أينما كانت اضطر إلى زيارة أكثر الألوية العراقية وعلى التعرف إلى مختلف طبقات الناس ، وعلى بحث مختلف المشاكل التى تتصل بالفقه والقانون فكان ينتهز هذه الفرصة ليرضى بها ميوله العلمية . وكان ينزو الأسواق ليشترى منها النسخ الخطية ويتجسس على أصحاب المكاتب ليتعرف المخطوطات النادرة التى لا يقدرها أصحابها فيبادر هو إليها لتكون فى مكتبته الأمينة وفى بيت أمين يحافظ على هذه الودائع الثمينة .

وكانت مكتبة المرحوم السيد نعمان خير الدين الألوسى هى التى حببت إليه فكرة إنشاء خزانة علمية تكون فردوساً للكتب فسار يقتنى الكتب على نحو ما ذكرت . وصار يضيف إليها الصيد النادر من خارج بغداد . ثم لم يكتف بهذا بل دفعه هذا الهيام بالكتب إلى زيارة مكتبات الشام ثم مكتبات الآستانة ، ثم لم يكتف بكل ذلك بل طلب المزيد وهو فى العلم نهم فذهب إلى روسية فأما ليستنسخ أو ليأمر بأخذ صور فتوغرافية لبعض النسخ الخطية النادرة المحتكرة فى خزانات كتب تلك البلاد .

فتجمعت على مرور الأيام فى بيت الأستاذ أوابد الكتب ومختلف المخطوطات ، ثم أضاف إلى هذا القديم شيئاً من الحديث الغض الذى يخرجه المستشرقون فى الغرب وأبناء العالم الإسلامى فى بلاد العروبة وفى بلاد الإسلام فتكونت لديه مكتبة ثمينة حرص على حياتها كل الحرص وتعهدها وما زال يتعهدها بالتغذية والنظافة والرعاية أكثر من رعايته لنفسه ، وهى عنده بمثابة ولده « فاضل » لها نفس حقوق الولد وزيادة ، يخدمها الأب والابن والأم . ولا أدرى منزلة هذه الكتب من قلب « أم فاضل » فقديماً كانت الكتب والمكتبات أشد وقعاً على قلوب الزوجات من « الضرائر » ولعلها هى كذلك فى نفوس السيدات المتزوجات على الرغم من ثقافة « ستينات » القرن العشرين .

وأخذ العزاوى العالم يفاجئ العراق بمؤلفاته وأكثرها فى تاريخ العراق وهى مؤلفات تشهد لصاحبها بسعة العلم وطول الباع وقدرته على الصبر والأناة سلك فيها مسلك علماء الخلافة العباسية . ولست بمبالغ إذا قلت عنه إنه يمثل دور مؤرخى العباسيين فى القرن العشرين . وكتابه « العراق بين احتلالين » وهو سجل جامع لحوادث العراق ويقع فى إثنى عشر مجلداً ويشمل حوادث المغول

وتاريخ الجلائريين ثم التركمان ثم حوادث الدولة العثمانية وحروبها مع الإيرانيين فتاريخ المماليك المعروفين بالكولات ففترة ما بين علي رضا باشا ومدحت باشا فأيام مدحت باشا فالمشروطية وهو كتاب ضخم مرتب على السنين ، وقد طبعت الأجزاء الثلاثة الأولى منه بين ١٩٣٥ و١٩٣٩ للميلاد ، وهو خير ترجمان عن علم الأستاذ .

وللعزاوي كتب أخرى مثل كتابه تاريخ اليزيدية وقد طبع في سنة ١٩٣٥ وسيطبعه مرة أخرى بعد أن أضاف إليه زيادات وتنقيحات جديدة . وقد نال التفات صاحب الجلالة المغفور له الملك غازي الأول . ويسكن اليزيدية في شمال العراق في لواء الموصل وهم جد حريصين على ألا تتسرب عقائدهم إلى الخارج ، وعقائدهم على ما يظهر مزيج من مختلف العقائد والأديان . ومثل كتاب « عشائر العراق » وقد طبع الجزء الأول منه وكتاب تاريخ الخط العربي ، وللأستاذ ولع خاص بهذا الموضوع وعنده مجموعة ثمينة من خطوط الخطاطين .

وللمترجم به مؤلفات أخرى مثل كتاب « تاريخ الموسيقى العربية » في عهد المغول والتركمان والعهود التالية لها . وكتاب « التعريف بالمؤرخين من تاريخ ظهور المغول إلى اليوم » . وكتاب « الكاكائية في العراق » وهم نحلة من الغلاة وكتاب « تاريخ الفيليه » وهم من الأكراد ، وكتاب « المعاهد الخيرية في العراق » ويبحث عن الجوامع والمدارس والتكايا ، وكتاب « الأسر العلمية في العراق » ثم « كتاب الأجازات العلمية » .

واتصل الأستاذ أثناء بحوثه هذه بمذاهب الأدب والأدباء وتعرف على أدبهم وطرقهم الخاصة في الكتابة والنظم ، وقد دفعه ذلك إلى التأليف في الأدب فألف « تاريخ الأدب التركي في العراق » و« تاريخ الأدب الفارسي في العراق » و« التاريخ العلمي والأدبي » وهو كتاب يبحث في تاريخ العلوم والأدب عند العرب .

هذه هي أسماء الكتب التي ألفها العزاوي حتى الآن ، وقد نشر بعض الكتب الخطية القديمة مثل كتاب « منتخب الدر المختار في علماء العراق » وهو ذيل لكتاب « تاريخ ابن النجار » انتخبه التقي الفاسي المكي وقد طبعه ببغداد سنة ١٩٣٨ ، ورسالة ابن حسول في تفضيل الأتراك على سائر الأجناد ، وقد قدم العزاوي لها مقدمة وترجمها الأستاذ التركي محمد شرف الدين رئيس الشؤون الدينية في الجمهورية التركية ونشرها في مجلة « بلله تن » التركية بأنقرة ثم نشرها بصورة مفردة بالقسطنطينية .

هذا عدا ما نشره في المجلات العراقية المختلفة وما زال ينشر في مختلف المجلات ، وهو الآن عضو في « نادي القلم العراقي » وهو نادي أدبي ببغداد يضم نخبة من الكتاب العراقيين رئيسه معالي الأستاذ الكبير الشاعر العربي الفحل الشيخ رضا الشبيبي رئيس مجلس النواب سابقاً ووزير المعارف في عدة وزارات . وهو محفل يجتمع أعضاؤه بين الحين والحين في بيت عضو من الأعضاء بالتناوب فيتسامرون ويتباحثون ويأكلون ويجمعون بين العلم والأكل ، ولذلك سماه بعضهم « نادي اللقم » على سبيل النكتة والمزاح .

وقد انتخبه أصحاب « إسلام ترك أنسكلوبيديسي » أي « دائرة المعارف الإسلامية التركية » عضواً مراسلا ، وانتخبه « المجمع العلمي العربي » بدمشق عضواً مراسلا أيضاً .

وهو الآن عضو في « لجنة الترجمة والتأليف والنشر العراقية » الرسمية وهي لجنة عراقية حكومية رأسمالها حكومي وأعضاؤها من العراقيين المشهورين بالتتبع والبحث لغرض ترجمة الكتب الأوربية الممتازة وتشجيع التأليف وإحياء التراث العربي القديم .

وبعد ، فالمحامي عباس العزاوي من أولئك النفر الذين لا يزالون على سنة العراقيين يؤلفون ويكتبون ويقرءون ، فمن واجبي أن أكتب عنه .

(بغداد) جواد علي

الصهيونى الأول

[مهداة إلى الأقلام النبيلة المجندة لنصرة فلسطين]

للأستاذ سعيد الأفغانى

بات العرب فى مشارق الأرض ومغاربها فى هم مقيم مقعد من خطر الصهيونية بفلسطين ، ومن كفر ساسة الانجليز والأمريكان بالضمير والانسانية . ولقد حق لهم ذلك فان فى إرث غريزتهم التاريخية — من حيث لا يشعرون — علم ما تكن الصهيونية من قوة على الشر ، وعبقرية فى تهديم مثل الخير والحق وما تستتبع من شرور آخذ بعضها بحجز بعض ، وبعض هذا كاف فى تبرير همهم وفزعهم .

وجميع الباحثين فى تاريخ هذا الجرثوم الخبيث يردون نشأته إلى القرن الثامن عشر ، لا يرقون إلى ما قبل ذلك ؛ فما قول القارئ الكريم إذا عرف أن العرب بلوا بفتك هذا الداء منذ أربعة عشر قرناً ؟ وأن عبقريته الهدامة فعلت فيهم فعلها الخبيث وبقوا يعانون آثارها السرطانية فى وحدتهم الدينية والقومية حتى يوم الناس هذا

وظاهر أنى عينت أعظم مأساتين فى تاريخ المسلمين : مقتل عثمان وحرب الجمل ، وأكثر المؤرخين يوزعون التبعة بين بعض الزعماء غافلين عن روح الشر وبطل الفتنة . والقليل منهم ممن انتبه إلى عامل الخفى جعل له نصيبا ثانويا فى تأريث الشر . أما أنا فقد خرجت من بحثى بيقين لا يعدله يقين إلى أنه كان فى الفتنتين جميعا عامل أولى واحد هو هذا الصهيونى الأول ، وإليك البيان منتزعاً من كتاب أعده عن (عائشة والسياسة) بعد ذكر الحوادث المعروفة .

فى مأساة عثمان :

رأيت من الخير قبل أن أنتقل إلى مآتى السيدة عائشة بعد عثمان أن أنبه إلى سبب هام أعزو إليه تبعة هذه المأساة ، مأساة عثمان التى ذهبت ضحيتها وحدة المسلمين فلم يجتمعوا بعدها قط . أودع أيام عثمان مقرراً : أن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة كعلى وطلحة والزبير وعائشة . هو — بعد التمحيص — من التبعات الثانوية . أما أقوى الأسباب التى أرثت الشغب وهاجت الاضطراب وبذرت الشرور وأوقدت الفتنة ؛ فهو مؤامرة واسعة منظمة محكمة ، سهر عليها أبالسة خبيرون ، وسددوا خطاها وتمهدوها فى جميع الأقطار حتى آتت ثمرها . ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحق من التوضيح والإهتمام

وأنا أجزم هنا أن الأسباب التى يذكرونها كلها ، والتبعات التى يوزعونها بين من ذكرت ومن لم أذكر ... لن تقوى مجتمعة على أن تسامى هذا السبب الهام الذى أشرت إليه ؛ بل أجزم أنها جميعاً عناصر (ثانوية) لم تكن لتنتج شيئاً لولا هذا الجو الذى هيأه إبليس هذه المؤامرة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء . وأبعد من هذا ، أنى أومن أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شىء قط من هذه المساعى التى يذكرونها ، لكان عمل ابن السوداء وحده كافياً فى بلوغ النتيجة المشؤومة نفسها .

* * *

عبد الله بن سبأ يهودى من صنعاء ، أمه سوداء ، تظاهر بالإسلام على عهد عثمان ، ثم اندفع متنقلا فى البلدان الإسلامية باذراً الضلالات والشرور فى هذا المجتمع السليم . وهو رجل على غاية من الذكاء ، وصدق الفراسة والنظر البعيد والحيلة الواسعة ، والنفاذ إلى نفسية الجماهير ، أقطع أنه أحد أبطال جمعية سرية مخيفة غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام . وأكاد أظن أن هذه الجمعية تعمل (لحساب) دولة أجنبية . هى دولة الروم التى انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام .

والغريب الذى لم أقض منه عجباً أن نشاط هذا الرجل قد اتسع لتعهد ميادين مختلفة هى الميدان الدينى ، والميدان السياسى ، والميدان الحربى .

لقد أراد نسف العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين غريبتين : الرجعة والوصاية . وقد حفظ لنا الطبرى بعض نصوص تعاليمه ، فمنها :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد[1]) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت فى المجتمع .

ثم قال لهم بعد ذلك : « إنه كان ألف نبى ، ولكل نبى

---

(١) سورة القصص ٢٨ الآية ٨٥ .

وصى ، وكان على وصى محمد ... ، ومحمد خاتم الأنبياء ، وعلى خاتم الأوصياء[١] » .

ثم انتقل خطوة بعد هذا التمهيد ؛ فجمع بين إفساد الميدان الديني والسياسي في إذاعة قوله : « فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصى رسول الله وتناول أمر الأمة[١] » . ثم قال بعد ذلك لأتباعه : « إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر[١] » . وهكذا دخلت تعاليم هذا المفسد الذكي قلوب الناس إذ تلطف لهم ؛ فجاء من الجهة التي تحن لها قلوبهم ، وتهواها أهواؤهم .

لقد طاف الأقطار العربية قطراً قطراً ، بدأ بالحجاز باثاً ضلالاته ، ثم انعطف إلى الشام والشام يومئذ بيد بصير بأمره معاوية بن أبي سفيان ، الذي فطن إلى خطره فأبعده ؛ إلا أنه على حذره أصابه رشاش من إفساده . والطبري يزعم أن ابن السوداء « لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر[٢] » .

والصحيح أنه قدر ، وزرع ، وحرك على معاوية صحابياً جليلا أذعن عامة الشاميين لأقواله حتى اضطر معاوية الداهية الحليم إلى أن يطلب من الخليفة عثمان إخراجه من الشام ، ذلك هو أبو ذر الغفاري وحادثه معروف مشهور ؛ وهذا الطبري نفسه يتولى قص الحادث :

« لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال : « يا أبا ذر ! ألا تعجب إلى معاوية يقول : (المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ! !) كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ؟ فأتى أبو ذر معاوية فقال له : « ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ » قال معاوية : « يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال مال الله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ ؟ » قال أبو ذر « فلا تقله[٣] » ... ثم كان ما كان من تأليب أبي ذر

(١) انظر هذه الأقوال كلها وغيرها في تاريخ الطبري ٣ — ٣٢٨ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨) .

(٢) الصفحة السابقة .

(٣) الجزء نفسه ص ٣٣٥

الأغنياء على الفقراء ، وخوف معاوية على الشام منه ومن دعوته ، ثم نفيه منها .

إني لشديد الإعجاب بذكاء ابن السوداء ، وصدق فراسته ، وإحكام دراسته لنفسيات الناس ، لقد عرف الخبيث من يختار من الشام فيخدعه بالله ، ولقد وفق التوفيق كله بهذه المقالة التي فصلها على مزاج أبي ذر ، فلم يكد يلقيها حتى طار بها أبو ذر فحط على معاوية . وهذا هو فن ابن السوداء الذي أنجح مساعيه ؛ فهم جيد للناس وأمزجتهم ونفوسهم ، و(استخبارات صادقة منظمة) انتفع بها أعظم الانتفاع في إحكام خطط الشر ، واستغلال حسن لغفلة المسلمين عن نواياه ، وخداع ماكر لهم عن دينهم وسلامة دولتهم .

لقد جنى الروم من دسائس ابن السوداء خيراً كبيراً : إذ شغل القوى الإسلامية بعضها ببعض فكسر شوكتها وشغلها عن الاندفاع في الفتوح ، وما استتبعت بعد ذلك من شرور أخذ بعضها برقاب بعض أفظع وأشنع هولا . ولو وقع ابن السوداء هذا لإنجلترا اليوم لاستغنت به في إفناء عدوها عن جيوش وأساطيل ومنظمات استخبارية تعج بالخبيرين الفنيين .

والظاهر أن ابن السوداء سكر بهذا الظفر الذي لم يكن يتوقعه في الشام ، فأتى أبا الدرداء ، ففطن هذا لمكره فقال : « من أنت ؟ أظنك والله يهودياً[١] » ، ثم انصرف عنه فأتى عبادة بن الصامت ، فتعلق به عبادة وسلمه إلى معاوية قائلا : « هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر[١] » .

« كان حكيم بن جبلة رجلا لصاً ، إذا قفل الجيوش خنس عنهم ، فيسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب إلى عامله عبد الله بن عامر : (أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً) . فحبسه فكاد لا يستطيع أن يخرج منها[١]) .

على هذا الرجل المفسد الموتور الجريء الناقم على عثمان ، نزل عبد الله بن سبأ لما أتى البصرة . وصار يجتمع إليه الناس ويبث إليهم تعاليمه الهدامة ومقالاته الثورية المفرقة ، بلباقة ، لا يصرح

(١) ص ٣٦٨ .

فيها بما ينم عن نواياه ، وفشا أمره وقبل الناس ما يقول وعظموه وبلغ خبره الوالى عبد الله بن عامر . فأرسل إليه فسأله «ماأنت» ؟ فأخبره : « أنه رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك » . فقال عبد الله : « ما يبلغنى ذلك ، اخرج عنى » فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، فاستقر بمصر وجعل يكاتب جماعاته فى الأمصار ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم[1] » .

هكذا صار ابن السوداء بماله من (استخبارات وفروع) يتسقط الناقمين واحداً واحداً : ممن ناله عقوبة أو تأديب من عامل أو خليفة ، أو ممن له طموح إلى منفعة لم يصل إليها ... فجعلهم حزبه وبطانته وألف بينهم حتى صار له فى كل بلد جماعة . فلما نظم هذه الفروع استقر بمصر بؤرة الناقمين ، وألقى إلى جماعاته فى الأقطار دستور العمل وخطة الدعاية التى تسبق الثورة ، وإليكها كما حفظها الطبرى :

« انهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر » .

فبث دعاته ، وكاتب من استفسد فى الأمصار وكاتبوه ، ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه هؤلاء فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة (العاصمة) وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون ؛ فيقول أهل كل مصر : « إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء » ... إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : « إنا لفى عافية مما فيه الناس[2] » .

وأحكمت هذه الجماعة أمرها ومؤامرتها ، وأرسلت إلى الأمصار كتباً مزورة بما شاؤوا من شكوى واستنجاد بأهل الأمصار ، وتحريض لهم على الثورة والخلع ، وجعلوا هذه الكتب على لسان على وطلحة والزبير وعائشة .

لقد ملأ ابن السوداء البلاد نقمة وثورة وفساداً ، وأصبحت الأقطار كلها هشيما يابساً ينتظر شرارة واحدة كان إرسالها أهون شىء على جمعياته وأتباعه . فلما قدمها التهمت الأخضر واليابس وأراقت الدماء وسالت جموع الثائرين من أهل الأمصار المختلفة على مدينة الرسول وكان ما يعرف كل قارىء من قتل الخليفة الشهيد على حال تبكى الصخر الأصم .

وهكذا قضى هذا الصهيونى الأول على حكم (المدينة) وحكومة (الراشدين) إلى يوم الدين .

(للحديث صلة) سعيد الأفغانى

(١) الطبرى ٣ — ٣٦٨ .

(٢) المصدر السابق ٣ — ٣٧٩ . — هذا ويعجبنى من أحد رواة الطبرى فهم جيد لفلسفة الحوادث : إنه يعزو كثرة الناقمين من الصعاليك إلى عامل اقتصادى هو ظفر أهل السابقة من المهاجرين والأنصار بالغنائم الوافرة والضياع العامرة ، وحسد الصعاليك لهم حسداً خفياً لا يظهرونه لأنه « لا حجة لهم فيه والناس عليهم ، فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو أعرابى أو محرر استحلى كلامهم فكانوا فى زيادة والناس فى نقصان = حتى غلب الشر » ١ ه‍ ٣ — ٣٣٣ ومن هذه الكثرة التى نمت فى الخفاء وجد ابن السوداء وأتباعه مادة وقودهم ، فما هبت الهيعة إلى الشر حتى كانوا جميعا على استعداد للفتنة .

القضايا الكبرى في الاسلام :

قتل بني قريظة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

من المهم في عصرنا أن تدرس واقعة قتل بني قريظة درساً قضائياً ، ليعلم الناس أن ما ارتكبه بنو قريظة يدخل في باب الخيانة العظمى للوطن ، ويندرج في أشد أنواعها جناية ، وأعظمها جرماً ، وأن ما قضى به الإسلام من القتل في ذلك هو ما تقضي به شرائع العالم كلها . لافرق في ذلك بين الشرائع القديمة والحديثة ، ولا بين الشرائع السماوية والوضعية ، وأن هذا الحكم هو حكم الإسلام في كل من يرتكب هذه الجناية ، لا فرق في ذلك بين مسلم ويهودي ونصراني .

كان أهل المدينة ينقسمون قبل الإسلام إلى قسمين : أولها من العرب اليمانية الذين هاجروا من اليمن بعد حادثة سيل العرم ، وهم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء ، وثانيهما من اليهود ، وكانوا ثلاثة بطون : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . وقد لبث الأوس والخزرج مع اليهود حيناً من الدهر يحيون الأرض الموات ويزرعونها وهم في عسر شديد ، وكان اليهود أرباب الأموال ، فحدث نزاع وشجار بينهم وبين الأوس والخزرج ، وقد انتهى ذلك بتغلب الأوس والخزرج على اليهود . ثم حدثت حروب بين الأوس والخزرج حالف فيها بنو النضير وبنو قريظة الأوس ، وحالف بنو قينقاع الخزرج ، ولم يكن اليهود فيما بينهم بأقل ظلماً وبغياً من العرب ، بل كان بنو النضير يتعززون على بني قريظة مع أنهم كانوا في حلف واحد ، فلم يكن بنو قريظة يساوون بني النضير في الحكم ، ومن ذلك أن دية القتيل من بني قريظة كانت نصف دية القتيل من بني النضير ، فكانت الدية من وسوق التمر لبني النضير أربعين ومائة وسق ، وكانت لبني قريظة سبعين وسقاً .

فلما دخل الإسلام المدينة قضى على تلك الحروب والفروق ، وسوّى في حكمه بين أبناء ذلك الوطن ، ولم يجعل فرقاً في حكمه بين المسلمين واليهود ، ولا بين بطون اليهود الثلاثة ، وقد شكا بنو قريظة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان بينهم وبين بني النضير من الدماء قبل الإسلام ، فأنصفهم منهم ، وحكم بأن دم القرظي وفاء من دم النضيري ، فكان بنو قريظة أكثر انتفاعاً بحكم المساواة الذي جاء به الاسلام ، وكان جميل الاسلام عليهم أكثر من جميله على غيرهم .

وقد جمع الاسلام بين أبناء هذا الوطن من المسلمين واليهود بمعاهدة حفظت لكل فريق منهم حقه فيه ، ولم تجعل لما بينهم من الخلاف في الدين أثراً في التفرقة بينهم ، وقضت على كل فريق أن يقوم بالدفاع عن الفريق الآخر إذا قصده عدو ، كما قضت عليهم جميعاً بحق الذب عن هذا الوطن إذا قصده فريق من الناس بأذى .

ولكن اليهود لم يلبثوا أن تنكروا لحق هذا الوطن عليهم ، ولجميل الاسلام الذي بدلهم من الخوف أمناً ، ومن الحرب والفوضى والاضطراب سلاماً ونظاماً واستقراراً ، فأخذوا يكيدون للمسلمين ، ويعملون على إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج ، ليعودوا إلى ما كانوا عليه قبل الاسلام من الحرب والخصام . ولما ضاق النبي صلى الله عليه وسلم بدسائسهم أجلى بني قينقاع في السنة الثانية من الهجرة ، فذهبوا إلى أذرعات بالشام ، ثم أجلى بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة ، فنزل بعضهم بخيبر ، ونزل بعضهم بأذرعات .

ثم جاءت نوبة بني قريظة في السنة الخامسة من الهجرة ، فكان جرمها أشد ، وكانت خيانتها لذلك الوطن أعظم ، لأنها جاوزت تدبير الفتن الداخلية إلى ارتكاب الخيانة العظمى ، وهي الانضمام إلى أعداء هذا الوطن وقت مهاجمتهم له ، فلم يكتفوا بترك الواجب عليهم من الدفاع عنه مع المسلمين ، بل انقلبوا عليهم مع أعدائهم من المشركين .

فإنه في السنة الخامسة من الهجرة ذهب جمع من بني النضير إلى مكة فقابلوا رؤساء قريش ، وحرضوهم على قتال المسلمين ، فقالوا لهم : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، وفي ذلك نزل قوله

تعالى في الآية ٥٦ من سورة النساء (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)..

ثم جمعوا جيشاً عظيماً من العرب واليهود يبلغ أكثر من عشرة آلاف، وقصدوا المدينة بهذا الجمع الذى لا طاقة لها به، فلم يجد المسلمون إلا أن يحفروا حولها خندقاً ليساعدهم على الدفاع عنها، وقد استعاروا من بنى قريظة آلات كثيرة من المساحى وغيرها، فاستعانوا بها فى حفره.

فلما بلغ جيش المشركين واليهود المدينة وجدوا حولها هذا الخندق، فضربوا حولها حصاراً شديداً، وكان حُيَيُّ بن أخطب سيد بنى النضير قد وعد قريشاً إذا أجابته أن يحمل بنى قريظة على نقض عهد المسلمين، فطلب منه أبو سفيان بن حرب قائد جيش المشركين أن يقوم بوعده، فذهب إلى كعب بن أسد سيد بنى قريظة وقال له: ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر، وببحر طام. جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أُحد، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماءه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء. ويحك يا حيى، فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.

وهذه شهادة لها قيمتها من كعب سيد بنى قريظة على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان محافظاً على عهده مع اليهود، ولم يحدث منه خروج عليه؛ ولكن حيى بن أخطب لم يزل بكعب حتى حمله على نقض ذلك العهد، بعد أن عاهده على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه فى حصنه حتى يصيبه ما يصيبه.

فانضم كعب بذلك إلى أعداء وطنه، ونسى هو وقومه جميل الإسلام عليهم، وأنهم كانوا أذلاء فى هذا الوطن فرفعهم الإسلام وأعزهم. وقد وقع المسلمون بذلك فى أكبر محنة، وزاد فى محنتهم أن المنافقين من الأوس والخزرج رفعوا أيضاً رؤوسهم، وأخذوا يتفلتون من صفوف القتال إلى بيوتهم بأعذار واهية، ليفتوا فى عضد المسلمين، ويحملوهم على الفرار مثلهم، ولولا أن تدارك الله المسلمين بلطفه لقضت عليهم تلك الخيانة الآثمة، وتمكن أعداؤهم من استئصالهم، فقد قابل النبى صلى الله عليه وسلم والمخلصون من المسلمين تلك الصدمة بشجاعة فائقة، وهدى الله بعض زعماء المشركين إلى الإسلام، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يكتم إسلامه عنهم، ويعمل على تفريق كلمتهم، فعمل على ذلك حتى أوقع الخلف بينهم. وما هى إلا ليلة مظلمة أرسل الله فيها ريحاً شديدة باردة، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح آنيتهم، فوقع فى قلوبهم الرعب، وأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح، ويتنبه لذلك المسلمون.

وهنالك وقع بنو قريظة فى شر ما فعلوا، وصاروا وحدهم أمام المسلمين الذين نقضوا عهدهم، فاجتمعوا بحصونهم وأغلقوها عليهم، وحاصرهم المسلمون فيها خمساً وعشرين ليلة، حتى أدركهم اليأس، وطلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك منهم، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم فلم يرض أيضاً، بل قال لرسلهم: لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً. فلما رأوا أنه لا بد لهم من النزول على حكمه فعلوا، فأمر برجالهم فكتفوا.

ثم جاء وقت النظر فى قضيتهم، فقام بالدفاع عنهم رجال من حلفائهم من الأوس، وطلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم كما عامل بنى قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج، فلم يمكنهم أن ينكروا جنايتهم، ولكنهم طلبوا تخفيف الحكم عليهم، وقد فاتهم أن جناية بنى قريظة ليست كجناية بنى قينقاع، حتى يصح قياسهم، ويكون الحكم فى الجنايتين واحداً.

لقد كانت جناية بنى قينقاع محاولة الدس والتفريق بين المسلمين، فكان عقابهم أن ينفوا من بينهم اتقاء لشرهم، أما جناية بنى قريظة فارتكاب الخيانة العظمى مع إخوانهم فى الوطن، بالانضمام إلى الأعداء الذين يريدون استئصالهم والقضاء عليهم، فخانوا بذلك وطنهم أكبر خيانة، بل خانوا دينهم حينما آثروا أن ينضموا إلى المشركين على المسلمين، مع أن المسلمين أهل توحيد مثلهم، فهم بذلك ينصرون الشرك على التوحيد، ويساعدون الكفر على الإيمان، وهذا هو ما أشار إليه القرآن

الكريم في الآيتين — ٨٠ ، ٨١ — من سورة المائدة (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي) أي موسى عليه السلام (ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) .

فلا يمكن بعد هذا كله أن تكون عقوبة بني قريظة كما طلب أولئك الذين تولوا الدفاع عنهم من رجال الأوس ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم رأى من السياسة ألا يتولى هو الحكم عليهم ، فقال لمن تولى الدفاع عنهم من حلفائهم : ألا يرضيكم أن يحكم عليهم رجل منكم . فقالوا : نعم . فأباح لهم أن يختاروا من يشاءون منهم للحكم عليهم ، فاختاروا سيد الأوس سعد بن معاذ .

وكان سعد جريحاً من سهم أصيب به في غزوة الخندق ، وقد أقام بخيمة في المسجد مُعَدَّة لمعالجة الجرحى ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من يأتي به ، فحملوه على حماره إلى مجلس الحكم ، وقد التف به جماعة من الأوس يقولون له : أحسن في مواليك ، ألا ترى ما فعل ابن أُبَيّ في مواليه . يعنون ما فعله عبد الله بن أبي رئيس المنافقين مع بني قينقاع ، فقال لهم سعد : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . ولما أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم قال : قوموا إلى سيدكم فأنزلوه . فقاموا فأنزلوه وقالوا له : إن رسول الله قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم . وقال له النبي صلى الله عليه وسلم : احكم فيهم يا سعد .

فالتفت سعد إلى الجهة التي ليس فيها النبي صلى الله عليه وسلم وقال : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت . فقالوا : نعم . ثم التفت إلى الجهة التي فيها النبي صلى الله عليه وسلم وقال : وعلى من هنا كذلك . وهو غاضٌّ طرفه إجلالا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : نعم . فقال سعد : فإني أحكم أن تقتل الرجال وتسبى النساء والذرية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد . ثم أمر بتنفيذ الحكم فيهم ، فخرج إلى سوق المدينة فخندق فيها خنادق ضرب أعناقهم فيها ثم طمرها عليهم ، وكانوا نحو ستمائة رجل .

وهذا الحكم هو ما تقضي به كل الشرائع القديمة والحديثة فيمن يخون وطنه ويحارب قومه مع أعدائه ، وهذه الجريمة من الخطورة بمكان عظيم في كل تلك الشرائع ، فلا تأخذها رأفة بمن يرتكبها ، بل تأخذه بأقصى ما يكون من العقوبة ، وهو عقوبة القتل . وقد كان بنو قريظة يريدون استئصال المسلمين بمساعدة أولئك المشركين ، فليجازوا قتلا بقتل ، واستئصالا باستئصال . وقد جازاهم الإسلام بذلك كما يجازي كل من يرتكب مثل ما ارتكبوا ولو لم يكن يهودياً ، لأنه لا يعرف في حكمه فرقاً بين مسلم ويهودي ونصراني ، ولا ينظر في تشريعه إلا إلى الجناية في ذاتها ، فيعطيها حكمها بقطع النظر عمن يرتكبها .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينظر إلى رجال بني قريظة في ذلك كأسرى حرب ، لأنه لم يفعل مع الأسرى في حروبه ما فعله معهم ، وإنما نظر إليهم كمجرمين خانوا وطنهم ، وانضموا إلى أعدائه في محاربته ، فأجرى عليهم حكم وطنهم في هذه الخيانة ، وكان أمرهم عنده أشد من أمر أسرى الحرب ، لأن المحاربين يساقون بعداوتهم إلى حرب أعدائهم ، أما الخائنون لأوطانهم وعهودهم فلا عذر لهم في خيانتهم ، ولا يستحقون من الرأفة ما يستحقه أسرى الحرب ونحوهم .

وقد كان في إمكان النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم ويجيبهم إلى طلب الجلاء كما فعل مع بني النضير ، وكما عفا عن حاطب بن أبي بلتعة في تجسسه لقريش ، ولكنه لو أجلاهم لعادوا إليه محاربين مع جموع العرب واليهود كما حصل في غزوة الخندق ، وأوقعوا المسلمين في محنة أشد من محنتها ، ولا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين .

عبد المتعال الصعيدي

رأى جديد في :

حماد الراوية

للأستاذ السيد يعقوب بكر

— ٥ —

٥ — رأينا في مدى انتحال حماد

لنسبق المقدمات إلى النتائج ، ولنُدلِ برأينا الذى انتهينا إليه بعد البحث الطويل ، لنعود فنؤيده بما سنؤيده به من الأدلة والبراهين .

هذا الرأى هو أن حماداً لم يبلغ من الانتحال ذلك المدى الذى تصفه لنا كتب القدماء . ليس من شك فى أنه انتحل بعض الأشعار ، وكان فى هذا متأثراً بحال الرواية فى عصره ، ولكنه لم يكن مشغوفاً بالانتحال عاكفاً عليه جاعلا له همّه وقصده .

فأما تدليلنا على صحة هذا الرأى ، فإنا نجعله قسمين : قسما نأتى فيه بأدلة عقلية ونقلية ، وقسما نمحص فيه ما ذكرناه من تلك الأقوال والأخبار التى أوردها القدماء فى صدد انتحال حماد .

القسم الأول

(١) يقول القدماء إن حماداً كان شاعراً ، وإنه كان شاعراً مجيداً ؛ وإنه كان يصنع الأشعار ، ويدسها على الجاهليين ، فتختلط بأشعارهم ، ويصعب التمييز بين هذه وتلك . ونحن نرى أنه كان شاعراً ، فقد قرأنا له طائفة من الأشعار ؛ ولكننا لا نرى أنه كان شاعراً مجيداً ، فإن أشعاره تميل إلى النثانة والركة ؛ ولا نرى أنه يبلغ من جودة القول ما بلغه شعراء الجاهلية حتى تختلط أشعاره بأشعارهم .

يقول البغدادى (خزانة الأدب ج ٤ ص ١٣١) : « وكتب حماد إلى بعض رؤساء الأشراف :

إنّ لى حاجةً فرأيُك[1] فيها ... لك نفسى فدًى من الأوصاب
وهى ليست ممـا يبلغها غيـ ... ـرى ولا يستطيعها فى كتاب

(١) يريد حماد أن يقول : فما رأيك فيها ؟

غير أنى أقولها حين ألقـ ... ـاك رويداً أسرّها فى حجاب

فكتب إليه الرجل : اكتب إلىّ بحاجتك ، ولا تشهرنى فى شعرك . فكتب إليه حماد :

إننى عاشق لجبتك الدكناء عشـ ... ـقاً قد حال دون الشراب
فاكسنيها فدتك نفسى وأهلى ... أتباهى بها على الأصحاب
ولك الله والأمانة أن أجعلـ ... ـها عُمْرَها أمير ثيابى »

هذه صورة لشعر حماد الذى يصفه القدماء بالجودة ، ويرفعونه إلى طبقة الشعر الجاهلى . فهل ترى أن مثل هذا الشعر يتسامى إلى ما قاله قيس بن الحدادية فى مديح أسد بن كُرْز[1] ، وزعم البعض أنه من صنع حماد[2] ؟

لا تعذلينى سَلْمَ اليومَ وانتظرى ... أن يجمع اللهُ شملا طالما افترقا
إن شتت الدهر شملا بين جيرتكم ... فطال فى نعمة يا سلم ما اتفقا
وقد حللنا بقسرىّ أخى ثقة ... كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا
لا يجبُرُ الناسُ شيئاً هاضه أسدٌ ... يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقا
كم من ثناء عظيم قد تداركه ... وقد تفاقمَ فيه الأمرُ وانخرقا

(٢) قدّمت فى الفصل السابق أنه لم يصح عن حماد وضع فى المعلقات ، وهى أهم ما رواه . فإذا كانت المعلقات قد سلمت من وضعه وانتحاله ، فلماذا لم يسلم سائر ما رواه ؟ ولماذا لم ينتحل حماد المعلقات ، وهو المشغوف بالانتحال العاكف عليه الجاعل له همّه وقصده ؟

(٣) يقول أبو عمرو الشيبانى ، فيما رواه أبو الفرج (ج ٥ ص ١٦٥) : « ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حماد الراوية إلا قدّمه على نفسه ، ولا سألت حماداً عن أبى عمرو إلا قدّمه على نفسه » . فما رأيك فى رجل هذا رأى ابن العلاء فيه ؟ وابن العلاء راوية ثقة ، وأجد القراء السبعة . مرّ الحسن به وحلقته متوافرة والناس عكوف عليه ، فقال : لا إله إلا الله ، لقد كادت العلماء أن يكونوا أرباباً ، كل عزّ لم يؤكّد بعلم فإلى ذُلّ يؤول . ما رأيك فى رجل يقدمه ابن العلاء على نفسه ؟ وهل تظن أن أبا عمرو بن العلاء ممن يرتضون تقديم رجل منتحل كاذب بالغ فى الانتحال والكذب ؟

(١) هو جد خالد بن عبد الله القسرى ، وكان يدعى فى الجاهلية « رب بجيلة » ، وكان شاعراً فاتكا مغواراً ، وقد أدرك الاسلام وأسلم .
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ٤ —

القسم الثانى

١ – تمحيص أقوال القدماء فى انتحال حماد :

فأما قول المفضل ، وقول يونس بن حبيب ، فإننا نقف منهما موقف الحذر . فقد كان المفضل معاصراً لحماد ، وكذلك كان يونس ابن حبيب . والمرء لا ينصف معاصره ، فى أغلب الأحيان ؛ ولا سيما إذا كانا من صناعة واحدة . بل إننا حين نقرأ قول المفضل : قد سُلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، ثم نقرأ قول من سأله : وكيف ذلك ؟ يخطر ببالنا هذا السؤال : إذا كان حماد معروفاً فى عصره بكثرة الانتحال ، فلماذا سأل السائلُ المفضل واستفسره ؟

وأما قول خلف وقول الأصمعى ، فإننا نقف منهما موقف الإرتياب ، فقد كان خلف معاصراً لحماد ، وكذلك كان الأصمعى . ثم إنهما كانا بصريين ؛ وما كان لبصرىّ أن ينصف كوفياً كحماد ، إلا إذا كان فى خلال أبى عمرو بن العلاء . وليس هنا مكان الحديث عما كان بين الكوفة والبصرة ، فى مجال العلم والأدب ، من تنابذ وتخاصم وصراع . هذا إلى أن خلف الأحمر كان منتحلا ، ذاع ذلك عنه ، واعترف هو به ؛ وذلك أنه نسك فى أخريات أيامه وترك الشعر والكلام ، فخرج إلى أهل الكوفة ، وعرفهم الأشعار التى أدخلها فى أشعار الناس .

وأما ما ذكره السيوطى من قول أبى حاتم ، فإننا نقف منه موقف الشك . ذلك لأننا لم نقف عليه إلا لدى السيوطى ، وهو متأخر(١) . هذا إلى أن أبا حاتم بصرى ، لا يؤخذ بقوله فى حمّاد إن صحّ منه هذا القول .

وأما ما يقوله ابن سلاّم فى حماد من أنه كان غير موثوق به ، فقد سمعه من غيره ، ولم يبنه على تجربته . ذلك لأنه لم يشهد أيام حماد ، ولم يتقدم به الزمن ليرى كذبه وانتحاله . فقد سمع هذا إذاً من غيره ، ثم دوّنه فى كتابه ، وهو يعلم أنه يتهم عالماً كوفياً . وكان ابن سلام من علماء البصرة .

(١) توفى سنة ٩١١ هـ .

٢ – تمحيص أخبار انتحاله :

نبدأ بتمحيص قصة حماد مع الخليفة المهدى . فنعيد ما قلناه فى صدد حياة حماد من أنه لم يدرك عصر المهدى فى أغلب الظن ، فقد توفى سنة ١٥٦ هـ كما يقول ابن النديم ، أو سنة ١٥٥ هـ كما يقول ياقوت وابن خلكان ، بينما أن المهدى تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ . ونعيد ما قلناه من أن الرواية التى يشير إليها ابن خلكان إذ يقول : « وقيل إنه توفى فى خلافة المهدى » غيرُ صريحة النسبة ، ولا تذكر تاريخاً معيناً مما يحدو بنا إلى رفضها . نعيد ما قلناه من أن حماداً لم يدرك عصر المهدى ، ومن أن رواية ابن خلكان ضعيفة ، لنصل من هذا إلى أن قصة حماد مع الخليفة المهدىّ قصة باطلة كاذبة ، وإلى أنها إنما اخترعت اختراعاً ولفّقت تلفيقاً . اخترعت ولفقت فى سبيل النيل من حماد ، ورفع قدر المفضل . وإلاّ فما رأيك فى قصة تنتظم ثلاثة فصول ؟ فصلا يحادث فيه المهدىُّ المفضل وحده ؛ وفصلا يحادث فيه المهدى حماداً وحده ؛ ثم فصلا كأنه خاتمة يخرج فيه حماد والمفضل معاً ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط ؛ ويرجع فيه الخادم معهما فيقول : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يُعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألف درهم لصدقه وصحة روايته ؛ فمن أراد أن يسمع شعراً جيدا مُحدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فما رأيك فى قصة قد فصّلت تفصيلا ، ونسّقت تنسيقاً ، وقُسّمت فصولا ؟ وما رأيك فى كلام الخادم ؟ ألا ترى أنه شبيه بكلام من روّج بضاعة فى سوق ؟ ثم ألا ترى أنه يفاضل بين رواية حماد ورواية المفضل فى تفصيل ودقة كأنه ناقد خبير ، لا خادم أجير ؟ أظنك ترى بعد هذا أن هذه قصة باطلة كاذبة ، فقد اخترعت اختراعاً ولفقت تلفيقاً . ثم إن الجاحظ فى البيان والتبيين (ج ٢ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ ط السندوبى) يذكر رواية من شأنها تكذيب هذه القصة . يقول الجاحظ : « أبو الحسن قال : كان رجل من ولد عبد الرحمن بن سُمرة أراد الوثوب بالشام ، فحمل إلى المهدى ، فخلى

من وحي المرأة

الورد الأحمـــــر ...

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

هو الورد ، لا يجــلو النواظرَ كالورد
له حمرة القانى من الدم فى الخــد
أطالع منه كلَّ حمراء غضــة ترفّ بما ضمت من الماء والوقد
فتضحك لى الدنيا ويُسفر نورها
وينجاب عنها كل أدجن مُربدّ
ويسكر حسّى بالصبابة والصبا وأستاف حولى مثل رائحة الخلد
كذلك كان الورد ، والورد لم يزل
على عهده ، ما حالَ وردٌ عن العهد
فيا تعسَ نفسى اليوم ما بالهـا انطوت
على ســلوة عنه وباتت على زهــد
تُجانبه عينى ، فما امتدّ لحظها إلى باقة إلا أشاحته عن قصد
أوسّع من حملاقها وهو مُشْفِق
أغيّض فيه الدمعَ منفرط العقد(١)
وأنجو كأن الورد ألسنة اللظى وبى مثل مس النار من شدة الوجد
هو الورد ، إلا أنه اليومَ باقتى إلى حبىَ الغالى المغيّب فى اللحد
إلى زوجتى بالحس والروح والحجى
وصنوىَ من دون النساء ومُعتدّى
أحجّ إليهـــا أحمـــل الورد زاهياً
كما كنت أغشى دارها خاطبَ الود
وسيان فى الحالَيْن وردٌ وباقة
ولكنّ هول الخطب فى الخاطب المُبهدى
فيا بُعْدَ بين الخاطبَيْن : مؤمِّلٌ
سعيد ، ومشئوم الهوى عاثر الجد
وإنى لأسـى كل حين لقبرها
على قدمى رسْفَ المكبّل فى القيد
أشُقّ على نفسى كما هان حسنها وبات رهين الترب والحجر الصلد
وأكرمها أن أطرق القبر راكباً
وإن كنتُ مهدود القوى قاصر الجهد
وآبَى على الأهلين حمل تحيتى
فأحمل طول الدرب باقتها وحدى
إذا استشرفتْ عينى المقــابر ثار بى
حنين، فحَثْحَثْتُ الخُطى طائرَ الوخد(١)
وأجهش كالمشتاق حان لقــاؤه
لمن ذاق فى أحضانها كجَنَى الشهد
وأُفضى إلى المثوَى أضمّ رخامه وأوسعه لثماً كمستقدح الزند
فيلقى رخامُ القــبر ضمّىَ جافياً
صليباً ، ويجزى حرَّ لثمىَ بالبَرْد
وأنظر للورد الجــنىِّ نثرتُه
هنا كدم القربان فى المعبد العِدّ(٢)
فأرجو لو أن الرمز كان حقيقة وأنى قربان الحبيبة لو يجدى
وألمس معنى الورد يُهدَى احمراره
لمعروقة الأجلاد(٣) شاحبة الجلد
فأبكى لهـــا منزوفةً جفّ عودها
وما كان أجرَى(٤) المـاء فى عودها اللد

(١) حملاق العين باطن أجفانها .

(١) الوخد : السرعة . (٢) العد القديم

(٣) أجلاد الانسان وتجاليده : جسمه وأعضاؤه .

(٤) أجرى أفعل التفضيل من جار .

سبيله وأكرمه وقرّب مجلسه ، فقال له يوماً : أنشدنى قصيدة زهير التى أولها «لمن الديار بقُنّة الحَجْر» وهى التى على الراء :

لمن الديار بقنــة الحجر أقوَيْنَ مذْ حِجَج ومذْ دَهر

فأنشده ، فقال المهدى : ذهب والله من يقول مثل هذا ! قال السمرى : وذهب والله من يقال فيه مثل هذا ! فغضب المهدى واستجهله ونحّاه ولم يعاقبه ، واستحمقه الناس » . فأنت ترى من هذه الرواية أن المهدى يعلم مطلع القصيدة ؛ وهو ما تقول القصة إن حماداً صنعه فى حضرة المهدى ، وإنه أقر بصنعه إياه بعد استحلافه .

السيد يعقوب بكر

وأبكى لوردٍ كان فى الخد والـلُمَى
وقد كان أندى الورد طراً على كبدى
تمر بى الساعات ما إن أحسّها   فهذا الحِـسَمى ألنى الزمان على الحد
أُطيل مقامى عازبَ الرشـــد ذاهلا
فإن غربت شمس الضحى ثاب لى رشدى
فأمضى وشمس الغـــرب حمراء وردةٌ
وقد نَفَضَتْ فوق المقـــابر كالورد

عبد الرحمن صدقى

إلى موعد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٤

للشاعر عبد الرحمن الخميسى

ليت يا موعد الحبيبة ما كنـ   ـتَ ، ولا درتَ فى حساب زمانى !
أين من عطرتْ أُويقاتك الحلـ   ـوة فى عالمى ... وفى وجدانى ؟
أين من خلدتْ ثوانيكَ بالحـ   ـب ، وزانتْ إذا حللتِ مكانى ؟
أين من كنت تُشهد القدر العمـ   ـلاق أنّى بها نسيت كيانى ؟
وكأنى على يديهــا ... فؤاد   عارم النبض ، دائب الخفقان !
أين يا موعد الحبيبة من كنـ   ـتَ بها تزدهى على الأزمان ؟
كنت ألقاك زاهياً ... يتباهى   كل آن أنى على كل آن !
كل وقت من الزمان تمنى   لو تريثتَ فيه بعض ثوان
كنت ألقاك وهى فيك عروس   صاغها الله من نسيج الحنان
تثمل الأرض من دبيب خطاها   وتموج الحياة بالألحان ... ! !
كنت ألقاك وهى فيك ملاك   بعثته السماء فى إنسان !
يعبق الجو حولهـــا بالمسرا   ت ، وتطويك حافلا بالمعانى
كم تعجلتُ أن تمر الليالى   كى أُلاقى لديك من تهوانى !
كيف لم تأت والحبيبة فى حيـ   ـن كما فى اللقاء عودتمانى ؟ !
جئتَ تستمهل الدقائق سعياً   خشية أن تحل نهب الأوان
قيّـد الحرص أن تراها ثوانيـ   ـك ، وأرخى لها عنان الثوانى
فتحاملن.. كاسفات.. بطاء ..   وانِدات فى سيرهن أمانى !
جئتَ يا موعد الحبيبـة مربداً (م) كئيباً تفيض بالأحزان !
أنت إن كنتَ قد حللت ، فماذا   عاقها أن تصير فى أحضانى ؟ !
آه لو يرجع الزمان بك الآ   ن إلى ساعة وراء الزمان ! !
ساعة أخدع انتظارى بها عن   قذفه باللهـــيب فى أركانى
عقرب الساعة الذى قد تخطا   ك إلى ما تلاك فى الدوران
كلمـــا دق دقة فى المسير ا   داح فى مهجتى دوى الهوان

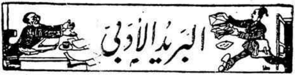
* * *

كيف يا مـوعد الحبيبة وليـ   ـتَ ، وألقيتنى إلى أشجانى ؟
كم تمنيتُ لو مضيتَ بعمرى   ضمن أوقاتك الغوالى الحسان
وجمتْ حولى الأريكة فى الرو   ض ، وغامتْ بما ترى العينان!
وكأنى بذلك المقعد الملتف بالعشـ   ـب ، أقاموه من لَى الأغصان
شاطر القلب فى التياعى فأبكى   غردات الطيور ... ثم بكانى !
وكأنى به يســائلنى عنـ   ـها ، ولـكن سدى يجيب لسانى
كيف يخلو من وجهها الأسمر العذ   ب ومن نور مقلتيها مكانى ؟
هذه كعبتى ... فأين التى أجـ   ـثو أُصلى لحسنها الفتان
هذه جلستى ... ولـكن إلى من   بعدها ، غير ذاهبات الأمانى ؟
أيها النسم ! أيها الأفق المخـ   ـضل بالسحب وهى دمع قان !
أيها الروض ! أيها الطير فوق !   أيها المقعد الخضير الحانى !
كم سكرتم هنا بنجوى فؤاديـ   ـنا ، فصرتم سكرى على الأكوان
كم وعيتم هنا .. أغاريد روحيـ   ـنا الغريبين عن بنى الإنسان !
كم ذهلنا هنا ... عن الأبدان !   وعدمنا شعورنا بالزمان !
وامحتْ حولنا من النظر الشا   مل حتى شيات هذا المكان !
والتقيْنا فى نشوة الحب روحاً   واحداً يستلذ شرع التفانى !
واحترقنا فى قبلة ... طهرتنا   ثم طارت بنا وراء الرعان
قبلة تمنح الخلود لحسى ... !   وتُرينى ما لا ترى العينان !
كم طفونا روحين ، ثم بلغنا   فى لظاها قرارة البركان

* * *

أنا وحدى هنا ... أُداهن أشوا   قىَ أن ترحم الفؤاد العانى
بى حنين إلى البكاء مرير   آه يا مقلتىّ لو تكيفان !
أيهذى الدموع .. ياقطرات النـ   ـفس بالشوق والأسى والحنان!
أنقذينى ! ترقرقى فى جفونى !   أنت يا راحتى ويا سلوانى !

عبد الرحمن الخميسى



التموين في عام :

معالي وزير التموين طه السباعي بك رجل عرفه الأدب قبل أن تعرفه الوزارة ، ولقد كتب وترجم ما هيأه لأن يكون في الصفوة المختارة من أدبائنا وكتابنا ، وإن الإنسان حين يتناول كتابه — أو بيانه كما يريد هو أن يسميه — الذي وضعه تحت عنوان « التموين في عام » ليعجب كيف تخضع هذه المعاني الرسمية الجافة لأسلوب الأدب الذي يحيل جفافها نضرة وجمالا .

وقد أهدى نسخة من بيانه ذاك إلي ، فكتبت إلى معاليه الأبيات الآتية :

يا وزير التموين : هذا كتاب   يمتع الحس والنهى أسلوبا
أنت أرسلته بيانا عليا   يشبه الزهر رونقا وطيوبا
كل لفظ فيه أرق من الفجر ، وأندى من النسيم هبوبا
صغته نادراً على الصوغ فذا   ثم أرسلته بيانا عجيبا ...

العوضي الوكيل

الى الدكتور ابراهيم ناجي :

ذكرتم في كتابكم الأخير « كيف تفهم الناس » ، وفي الفصل الخاص بدراسة نفسية الجماهير « أن الفرد ينحدر من أصول غطاها الطلاء الذي ندعوه المدنية وغشاها العشب الذي ندعوه الثقافة ، ولكن هاته الأصول لم تمح آثارها ولن » .

فهل من وجه للمقابلة بين الثقافة والعشب ؟

فالعشب — كما نعلم جميعاً — لا يصلح لشيء ، فهل الثقافة كذلك ؟

والعشب يطفو على سطح الماء ، فهل تطفو الثقافة على سطح الحياة ، أم تغوص في المرء وتتأصل ؟

والعشب هش تذروه الريح ، فهل الثقافة رخوة تزيلها العواصف ؟

والعشب بقايا الحصاد ، فهل الثقافة نفاية الحصاد الذهني ؟

أترى حالف التوفيق الصديق في هذه المقابلة ؟

وديع فلسطين

المعلقات

يكتب الأستاذ السيد يعقوب بكر عن حماد الراوية وقد عرض للمعلقات فوافق ابن النحاس النحوي المصري على أنها لم تعلق في الكعبة ولكنه خالفه في اختيار العرب لها ، ورأى أن العرب هم الذين اختاروا هذه القصائد وفضلوها على غيرها . قال في العدد (٦٤٨) : (فالمعلقات إذاً قد تكون من اختيار العرب القدماء) ثم جاء في العدد (٦٤٩) فجعل هذا الذي قد يكون أمراً محققاً ، وأكد فيه ما ردده في العدد السابق فقال (واستقام لنا أن العرب القدماء هم الذين اختاروا المعلقات وفضلوها على غيرها) . وهذه دعوى لا تقل في نظر الباحث في التاريخ الأدبي عن دعوى التعليق ، فان الناظر في الأدب الجاهلي يستطيع أن يعرف من هذا — لو صح — الذوق الأدبي عند عرب الجاهلية ويستطيع إلى أي مدى كانوا يحكمون على الشعر وما هو مدار الفحولة في الشعر عندهم ؟ ومن دراسة هذه المعلقات يتبين له النوع الذي كان يؤثره جمهور العرب على غيره وهكذا ، فاذاً هذه دعوى لا يمر بها الدارس مراً ولا يلقيها على رسيلاتها ، بل لا بد له أن يدعمها بالدليل ، ويؤيدها بالبرهان ، ونحن نرى أن الكاتب اعتصم بأمرين أولهما ما ذكره في قوله « ويؤيدنا في رأينا هذا ما يقوله ابن النحاس نفسه من أن حماداً الراوية لما رأى قلة من يعنون بالشعر ، جمع هذه القصائد السبع ، وحث الناس على درسها وقال لهم : هذه هي المشهورات ، ولفظ المشهورات هنا هو بيت القصيد) وهو كما نرى — دليل واه ضعيف — فما أهون على حماد أن يكون زعم هذه الكلمة ، ويؤيد هذا أنه قدمها للناس حين رأى منهم الزهد في الشعر . فمن المرجح حينئذ أن يقول لهم إن هذه القصائد كان يؤثرها العرب على غيرها ، وكانت عندهم مشهورة ليحثهم بذلك على حفظها ودراستها ، وكل ما يمكن أن يؤخذ من هذا أن حماداً نفسه كان يستجيد هذه القصائد ، أما ماعدا ذلك فيحتاج إلى دليل ، فمن أين لنا مثلا الدليل على صدق حماد في هذه الدعوى ؟

أما الأمر الثاني فما ذكره في قوله (فالعرب الجاهليون قوم

قد شغلوا بالشعر فقالوه ورددوه وأقاموا الأسواق لإنشاده ونقده ، وقوم هذا شغلهم بالشعر لا يصعب عليهم تفضيل بعضه على بعض واختيار بعضه دون سائره) .

ونقول له نحن : وهو كذلك . نعم لا يصعب على العرب أن يفضلوا بعض الشعر على بعض ، ولكن من أين لنا أن هذه هي القصائد التي فضلها العرب واختاروها ؟ إن هـذا الدليل لا ينتج لنا الدعوى . فهو دليل ناقص ومبتور . فاستقام لنا أن دعوى شهرة هذه القصائد وتفضيل العرب لها على غيرها دعوى لا دليل عليها .

ونحن ننتظر من هذا الباحث أو من غيره الحجة والبرهان على هذه النظرية أو على نقيضها حتى نرتب على ذلك نتائج صحيحة سليمة وهي نتائج على جانب كبير من الأهمية في قيمة النقد عند عرب الجاهلية .

بنباقادن الثانوية — **علي جلال الدين شاهين**

الكأس السابعة

أشرق علينا الأستاذ صلاح ذهني بمجموعة قصص جديدة يضمها اسم « الكأس السابعة » ... وقـد كانت في الواقع كئوساً عذبة من الأدب القصصي أرشفنا إياها الأستاذ المؤلف .

وقد قدم له بمقدمة خائفة تداهن الناقد وتتقرب إلى القارئ في أسلوب متهكم بعض الأحيان جاد في الأحيان الأخرى ، وكنت وأنا أقرأ هذه المقدمة أعتقد أن الأستاذ صلاح قدم إلينا شيئاً هو غير راض عنه ... ولكن حين قرأت هذه المجموعة بدا لي أنه كان يتهكم في مقدمته جميعها ... فهذه القصص التي أبرزها لا تحتاج إلى مداهنة أو زلفى فهي واضحة المغزى محكمة العقدة بارعة الحل ، كل هذا في أسلوب طلي وعبارات مختارة .

وكم سرني أن الأستاذ صلاح قد سلسل حوادث قصصه في صميم مجتمعنا هـذا ، فجمع بهذا بين الفن الصافي والنقد البارع لما يدور حولنا ، وهو بهذا يناقض هؤلاء القوم الذين اعتقدوا أن القصة فن رفيع لا يصح أن يسفل إلى المجتمع متناسين أن كاتب القصة نفسه من المجتمع يسفل إذا سفل ويعلو إذا يعلو ... أثبت الأستاذ صلاح أن القصة لا تسمو على المجتمع وإنمـا هي من صميمه وواجبها فيه النقد والإصلاح لا التعالي والاستكبار .

ولكن لي على الأستاذ المؤلف نقيدة أرجو أن يوليها شيئاً من التفاته ، ذلك أنه كان ينحي القصة دائماً بالفاجعة ولا نستطيع أن نعيب عليه هذا في كثير من قصصه لأن حبكتها كانت تستدعي هذا ... ولكن لم لم يخلق لنا شخصية خيرة ممن لا يمكن أن ننكر وجودهم في المجتمع ؟ ... فلو أوجد الأستاذ هذه الشخصية لاستطاعت أن تتلافى كثيراً من الفواجع ولجعلتنا أيضاً نرنو إلى مستقبل للمجتمع تمحى فيه مساوئه ويرفرف عليه الخير ، أما اليوم بعد أن قرأنا هذه القصص فلا يسعنا إلا أن نبتر الأمل في الاصلاح .

ولكن هذا المأخذ لا ينقص من روعة المجموعة شيئاً بل ولا يجوز لي أن أسميه مأخذاً فما هو إلا رأى أسوقه ألتمس له عند المؤلف تحقيقاً .

ثروت أباظة

جمعية المؤلفين والملحنين :

اجتمع لفيف كبير من المؤلفين والملحنين في الساعة الحادية عشرة صباحاً بنادي السينما بالقاهرة ، وبعد أن تلا عليهم الأستاذ فريد غصن بعض أغراض جمعية المؤلفين والملحنين بباريس ، رأى المجتمعون أن هذه الأغراض هي نفس الأغراض التي يسعون إلى تحقيقها ، فقرروا تأليف هيئة منهم وممن ينضم إليهم في المستقبل للعمل على تحقيق هـذه الأغراض بالتعاون مع تلك الجمعية على أن يكون المجتمعون أعضاء مؤسسين .

كما قرروا اختيار الأساتذة : أحمد رامي ، وأحمد فؤاد شومان ، وبديع خيري ، وبيرم التونسي ، وفريد غصن ، وعبد الرحمن سامي ، ومحمد عبد المنعم (أبو بثينة) ، ومحمد شوكت التوني ، ومصطفى عبد الرحمن ، لوضع القانون الأساسي للهيئة واللائحة الداخلية ، وتكييف وضعها القانوني في مصر بما يضمن انتفاعها بجهود الجمعية المركزية للمؤلفين والملحنين بباريس، على أن يقدموا تقريرهم في اجتماع تعقده الهيئة في يوم الجمعة ٢١ ديسمبر ١٩٤٥ .



من قصص الصين :

الدمـــع ...

« للكاتب الصيني الكبير « يه - شاو - كين »

ترجمة عبد الله ما — جي — كو

بحث رجل عن شيء أضاعه الناس في جميع بقاع الأرض التي تضيئها أنوار الشمس والقمر والنجوم ، وجهد في البحث عنه تحت جذور الحشائش وفي الترع النـــاضبة وفي تراب الشوارع وفي كل جزء من الهواء الذي يأتيه ، ولـكن لم يجده في كل هذه ، فتنفس تنفساً أبعد عمقاً وأكثر حزناً من تنفس الغابة الكثيفة وقال : « أين الشيء الذي أريده ؟ أين الشيء الذي أريده ؟ »

وجاء « الرجل المتفائل » وسأله قائلا : « لماذا تبحث تحت جذور الحشائش ، هل ضاع منك اللؤلؤ ؟ ولماذا تبحث في الترع هل ضاع منك الزئبق ؟ ولماذا تبحث في التراب ، هل ضاع منك الدم ؟ ولماذا تبحث في الهواء ، هل ضاعت منك الرائحة الطيبة ؟ »

فهز الرجل رأسه وزفر قائلا : « كلا ، لم تضع مني هذه الأشياء »

فرد عليه الرجل المتفائل : « أنت أحمق إذن ، فان الإنسان لا يبحث هذا البحث المرهق إلا عن هذه الأشـــياء القيمة ، وأرى أنه يجب عليك أن لا تتعب نفسك وتهلكها لأجل شيء لا قيمة له » . قال المتفائل هذه الكلمات وقد ملأت الابتسامة وجهه وارتفع لحم خديه وتجعد الجلد الذي حول عينيه تجعدا عميقا ، كما هي صفته التي تعودها كلما تكلم مع الناس .

وأجابه الرجل قائلا : « إن الشيء الذي أبحث عنه أهم من الأشياء التي ذكرتها ، وإني قد بحثت عنه كل يوم وفي كل مكان فلم أجده ! إني أبحث عن الدمع » .

ولما سمع الرجل المتفائل كلامه فتح فمه — كأنه غار عميق — ورفع رأسه إلى السماء يقهقه بلا انقطاع ، وقال بعد حين : « الدمع ! وهل للدمع أتعبت نفسك وجهدت في البحث عنه ؟ إني لا تدمع عيناي دمعة واحدة ولا أعرف أين منبع الدمع من جسم الإنسان ، وإنما رأيت بعض الحمق تنزل الدموع من عيـونهم ، وسأخبرك عن الأمكنة التي تنزل دموعهم فيها :

« إذهب إلى المحطات والمرافيء تجد هناك رجالا ونساء كأن قلوبهم قد ربط بعضها ببعض لا يضيعون لحظة من الزمن وإنما يتحادثون فيها ولو بتكلف ، وإذا لم يتمكنوا من الكلام غابوا في أحلام هناك كأن البرهة تساوي زمنا طويلا لا نهاية له ، وترى هناك أيضا الأيدي في الأيدي ، والأذرع بالأكتاف ، والأفواه بالأفواه كأنها مشدودة ملتصقة لما تنفك بعد ، فاذا اتفق أن تصفر الباخرة أو القاطرة ، انقطعت المحادثات ، واستيقظ الحالمون ، وانفكت الأيدي والأذرع المشدودة وسالت الدموع من عيونهم سيلان الماء من الينبوع ، وإني أرى هذه المناظر حقيرة مضحكة ولكن إذا ذهبت إلى هناك وجدت الدمع بدون تعب ولا مشقة »

وأجاب الرجل قائلا : « لا أريد هذه الدموع ، لأنها دموع الحب والغرام ، وإنهـا كثيرة جداً يسهل علي أن أجدها ، ولو كنت أريدها لذهبت إلى المحطات والمرافيء منذ زمن » .

وقال الرجل المتفائل : « إذا لم ترد هذه الدموع ، فاذهب إلى أحجار الأمهات أو إلى المهاد تجد فيها أطفالا راقدين تعجبك وجوههم الحمراء الجميلة وشعورهم الصفراء الخفيفة وعيونهم السوداء المنيرة وتدعوك إلى رحمتهم والعطف عليهم ، وتراهم يبكون فجأة بكاء شديدا ثم يقطعون البكاء بدون تكلف ، ولا تكون دموعهم أكثر من دموع الرجال والنساء المذكورين ، ولكنني أظن أنها تكفيك وتقنع أملك ، فاذهب إلى هناك » .

فأجاب الرجل قائلا : « لا أريد هذه الدموع أيضا ، لأنها دموع الطفولة وهي موجودة في كل بيت يسهل علي أن أجدها ، ولو كنت أريدها لذهبت إلى أحجار الأمهات أو إلى المهاد باحثاً فيها »

قال الرجل المتفائل : « إذا أنت لم ترد هذه الدموع فاذهب إلى الملاهي ودور التمثيل ترَ على مسارحها رجالا ونساء يمثلون أحيـانا روايات محزنة خيالية كأنها حقيقية ويقومـون بأدوار مضحكة ومناظر محتقرة كموت زوج المرأة أو مصرع قائد الجيش ، للدفاع عن بلاده أو حب الفتى والفتاة وتعذر اجتماعهما أو غير ذلك وإذا مثلوا الرواية ووصلوا إلى أشد الأمور حزنا وأغمها بكوا بكاء شديدا ونزلت الدموع من عيونهم ، ولا يهمنا أن تكون الرواية حقيقية أو كاذبة فعلى كل حال هم يبكون وستجد في عيونهم الدموع ، فاذهب إلى الملاهي وابحث عن الدموع في مسارحها »

فأجاب الرجل قائلا: «لا أريد هذه الدموع كذلك، لأنها دموع خيالية كاذبة ووجودها لا اعتبار له في العالم، فلماذا أذهب إلى الملاهي؟»

ولم يستطع الرجل المتفائل أن يزيد على تلك الدموع المذكورة فنظر إلى الرجل فاتحاً عينيه، وبعد برهة سأله قائلا: «إذن، أي دمع تريد؟ لأني أعتقد أنه لا توجد في الدنيا إلا الدموع التي ذكرتها، فهل تعلم دمعاً غيرها؟»

فأجاب الرجل قائلا: «نعم، علمت أن في الدنيا دمعاً غير تلك الدموع، وأنا لا أبحث إلا عنه، وأصرح لك بأنه دمع العطف والرحمة لا غير»

فعجب الرجل المتفائل من كلام الرجل، وحدق بعينيه في وجهه، وهز رأسه هزة خفيفة وقال: «لعل هذا الدمع ليس موجوداً في الدنيا؟ دمع العطف والرحمة! لم أكن أسمع هذا الإسم الغريب، ولم أعرف من الذي ينزل من عينيه هذا الدمع، ولأي سبب ينزل، فإذا علمته فهل لك أن تخبرني عنه بالتفصيل؟»

فقال الرجل: «نعم، سأخبرك عنه بكل سرور: إن دمع العطف والرحمة لا يسيل لشخص أو لشخصين فحسب، بل يسيل للناس الكثيرين، وإن صاحب هذا الدمع يذرفه من عينيه إذا رأى المأساة وتأثر قلبه تأثراً تاماً، وليس هو كدموع الأطفال لأنها طبيعية بغير تأثر. وإن هذا الدمع يسيل للاخلاص والصدق ولا يوجد فيه شيء من الخيال والكذب. وأما أي شخص يسيل منه هذا الدمع فإني لا أعرفه، وقد بحثت عنه في كل مكان ودققت النظر في عيون الناس، فلم أجد قطرة من هذا الدمع، ومن يدري لعله لم يكن موجوداً! وربما سقط وضاع من عيون الناس في مكان، وكل شيء إذا ضاع يمكن أن يوجد بالبحث عنه. وسأبحث عنه لعلي أجده وأرده إلى أصحابه، وما عثرت على الذين ينسكب من عيونهم هذا الدمع، ولكن عسى أن أجدهم خلال بحثي عنه»

ولم يصدق الرجل المتفائل كلامه، وهز رأسه هزات ثم قال: «لا أفهم كلامك، ولكن إذا كان هناك من يسيل من عينيه هذا الدمع، فإنه يكون أكثر حمقاً وأشد سفهاً من الذين ذكرتهم لك، فإن الإنسان أذكى وأعز من كل شيء، ويستحيل أن يبلغ هذا المبلغ من الحمق والسفه، لذلك لا أستطيع أن أصدقك».

ونظر الرجل إلى الرجل المتفائل نظرة عطف وإشفاق، ثم تنهد وقال بصوت رقيق: «وأنت أيضاً من الذين أضاعوا هذا الدمع! فيجب عليك أن تبحث عنه معي، فإذا وجدته استرددت الشيء الذي أضعته، فهل لك أن ترافقني؟»

ولم يرض الرجل المتفائل عن كلامه بالطبع وقال: «كيف ضاع مني هذا الدمع، إن عيني لم تدمع دمعة واحدة، ولا أحب أن يسيل الدمع مني، ولا أرضى أن أعمل معك عملا لا فائدة فيه، لذلك سأذهب إلى حفلة الغناء والرقص أغني فيها غناء السرور وأرقص رقصة جميلة»

ولما رأى الرجل الباحث أن الرجل المتفائل لا يرضى أن يبحث معه عن الدمع فارقه واستمر في عمله، ووقف الرجل المتفائل يضحك من هذا الرجل ضحكا عميقاً على حمقه وسفهه، ثم ذهب إلى مكان السرور، وشغل فيه باللهو والغناء

ولم يجد الرجل الدمع في تلك الأمكنة، فغير رأيه وذهب إلى مكان مزدحم بالناس باحثاً بينهم عن الدمع، فوقف بجانب شارع، ورأى السيارات تسير فيه أسرع من الريح، تأتيه فجأة وتروح لا يكاد يشعر بها، ورأى المارين في الشارع يضطربون اضطراباً شديداً، وينظرون تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف وهم خائفون من السيارات أن تمزق أبدانهم، ووجد البغال تجر العربات الكبيرة المحملة بالفحم هزيلة الأجسام كأن اللحم لا يوجد فيها، والعرق المتصبب منها بلل شعورها السوداء، وكلما خطت خطوة كادت تقع على الأرض فتجد قوتها في كل خطوة وتذهب بذهابها؛ وهكذا مشت إلى الأمام تغمض عيونها بعض إغماض، وأما سواقوها، فقد ملأ غبار الفحم وجوههم وجعلها سوداء فاحمة، وكأن عيونهم مغمضة، وأصبحت شفاههم حمراء مخيفة، ورأى الرجل من ناحية أخرى رجالا يجرون «العربات اليابانية» التي يركبها الناس يعدون كالخيل ويمسكون بأيديهم أذرع العربات، ويطوون أرجلهم في العدو حتى تكاد تصل إلى أعجازهم ويرفعون أعضادهم كما ترفع الطيور أجنحتها، وإذا اتفق أن هاجت الريح بالتراب وألقته في وجوههم فيدخل أنوفهم وأفواههم، يتنفسون بأصوات عالية خشنة كأنها البخار يخرج من أنابيبه ويتفصد العرق من وجوههم، ولا تسمح الظروف لهم أن يمسحوه عنهم، وإنما يسيل بنفسه إلى الأرض ويتلاشى في الرمل والتراب

فقال الرجل لنفسه: «لعل هنا دمع العطف والرحمة».

ولكنه حين بحث عنه بحثاً دقيقاً لم يجد قطرة منه ونظر إلى سائقي السيارات والماشين والبغال وسائقي عربات الفحم وجاري العربات اليابانية والجالسين عليها فاذا عيونهم جامدة لا تبض بدمعة فغادر ذلك الشارع خائب الأمل.

وذهب إلى دار الاحتفالات الكبرى فوجد فيها الناس مزدحمين منهمكين فى إعداد حفلة فخمة لاستقبال رجل عظيم ، وسمعهم يتكلمون عن تاريخ هذا الرجل : فيقولون « خاض هذا الرجل العظيم غمار الحرب مرات كثيرة وهزمت بخططه جيوش العدو التى لا تحصى ولا تعد ، وكانت كل جثة تستلقى على ظهرها أو تحبو على بطنها فوق المروج الواسعة وفى الترع والأوحال العميقة مصابة برصاصه وقنابله ، وخربت الحقول وهدمت الحدائق وسكتت أصوات التلاميذ فى المدارس ووقفت حركات الآلات فى المصانع بمدافعه وطائراته ، وأصبحت الأيدى مقطوعة والأرجل مكسورة وفقدت النساء أزواجهن والامهات أبناءهن بقضائه وقدره وهو يمر الآن بهذا البلد بعد انتصاره فى الحروب »

فقال الرجل : « لعل هنا دمع العطف والرحمة » . ولكن حين أقبل الرجل رأى على وجوه الناس علائم الاحترام ودلائل الفرح فقفزوا ورقصوا كأنهم جماعة الضفادع ، وظلت أصوات هتافهم كالأمواج تصخب ورموا قلانسهم فى وجه السماء تتراقص فى الهواء ، وفى هذه الضوضاء وذلك الجنون دخل الرجل العظيم وتبعه الناس وافتتح الاحتفال ، ورأى الرجل أنه لا يوجد على وجوه الناس إلا الابتسامة والبشاشة كأن عيونهم لم تسل منها الدموع قط ولن تسيل منها أبداً ! فغادر تلك الدار صفر اليدين .

وذهب الرجل إلى مصنع كبير فوجد رجالا ونساء كثيرين يعملون فيه ، وقد أصمت أصوات الآلات آذانهم وزكمت روائحها أنوفهم ، وما أكبر العجلات التى لا يستطيع الإنسان أن يحركها إلا بقوة كبيرة ، ورأى الرجل علامات الموت تدب على وجوههم من شحوب وهزال ، ويحنى بعضهم ظهره بجانب الآلات يأكل الطعام الخشن الردىء ، وتقف بعض النساء يفكرن فى أطفالهن الذين تركنهم فى البيوت فربما بكوا بكاء شديدا إذا لم يجدوا أمهاتهم ، ولكن لا يمكن لهؤلاء الرجال والنساء أن يضيعوا وقتا كبيرا بل يجب أن يأكلوا بسرعة ، وعلى النساء أن يستيقظن من أحلام التفكير ويواصلن العمل . ولما غابت الشمس خرج العمال من المصنع ومروا بالسوق الليلية التى يطوف بها الرجال والنساء يبحثون عن السعادة والفرح ؛ فدخل العمال فى موج هؤلاء السعداء المزدحمين واختلطوا بهم .

وتبع الرجل هؤلاء العمال مفكراً قائلا : « لعل هنا دمع العطف والرحمة » . ولكن هؤلاء الناس كماء النهر إذا دخله ماء آخر اختلطا وسار معاً بدون تأثر ، وكذلك اختلط الناس فى السوق بالعمال الذين دخلوا بينهم ولم يتأثر بعضهم ببعض فحدق الرجل نظره فى عيونهم فوجدها كأنها قعور الآبار الجافة لم تسل منها الدموع ولن تسيل ، فغادر تلك السوق منقطع الرجاء .

ورأى الرجل أنه لم يجد دمع العطف والرحمة فى الناس أيضا فحزن حزناً شديداً ومشى فى الطريق حتى وصل إلى قرية بغير قصد ، ورأى كوخاً أمامه ميدان واسع وحوله بضع أشجار من الصفصاف تحجب أشعة الشمس أوراقها الخضراء جميلة رشيقة ، ويظهر أن عند صاحب الكوخ ضيوفاً يعد لهم وليمة ، وبدأت امرأته تذبح الدجاج وبجانبها قفص فيها بضع عشرة دجاجة ، فأخذت المرأة دجاجة واحدة وأمسكت بيدها اليسرى جناحيها وعرف رأسها ونزعت بيدها اليمنى شعر عنقها ثم أخذت سكيناً وذبحتها ، فحركت الدجاجة رجليها كأنها تريد أن تدافع عن حياتها ولكن لم تقدر فسال الدم من عنقها فى طاسة صغيرة ، فوضعتها المرأة على الأرض بعد انقطاع الدم ، وتحركت الدجاجة على الأرض حركة خفيفة ولم تلبث أن أصبحت كومة من الريش من غير روح ، وذبحت المرأة الدجاجة الثانية والثالثة كما ذبحت الأولى .

ولما ذبحت المرأة الدجاجة الخامسة خرج من الكوخ ولد ذو وجه أحمر وعينان سوداوان يتطلع بهما وسعى إلى المرأة فرأى أكواماً من الريش ودجاجاً فى القفص ، ووجد واحدة منها فى يد المرأة منظرها يؤلم القلوب ، فأسرع ليمسك بيد المرأة اليمنى وخرج البكاء المحزن من فمه وتدفقت الدموع من عينيه كتدفق الينبوع

ولما رأى الرجل الدموع لم يصدق أن عينيه تريانها حقيقة وظن أنه فى سنة من النوم فإنها جزاء تعبه الغالى أتاه من غير حسبان ، ولكنه دقق النظر فيها فوجدها حقيقية تسيل من عينى الولد قطرة قطرة كأنها درر لامعة ، ففرح فرحا شديداً كأنه وجد اللؤلؤ وصاح قائلا : « لم أكن أظن أننى أجدها هنا ! » وتقدم إلى الولد ووقف أمامه ماداً يديه تحت عينيه ، وبعد برهة ملأت دموع الولد كفيه .

فقال الرجل : « لقد وجدت الآن هذه الدموع التى أضاعها الناس ! وإن واجبى الآن أن أردها إليهم » . فراح قاصداً إلى « الرجل المتفائل » يردها إليه أولا لأنه لم يصدق أنه أضاع هذه الدموع وطلب منه أن يحفظها ولا يضيعها مرة ثانية ، ثم ذهب إلى كل مكان يهدى إلى كل إنسان هذه الهدية القيمة التى لا مثيل لها عنده . فاستعدوا أيها القراء الكرام ، لتأخذوا هديته ؛ فربما جاءكم بها قريبا .

عبد الله عاجى - كو